

سيرة علي من كلام علي عرض موجز من سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام من خلال نهج البلاغة

الدكتور محمد مهدي جعفري

جامعة شيراز

عرض موجز من سيرة الامام عليّ (ع) بالاعتماد على كلامه وخطبه في نهج البلاغة. وما ورد على ألسنة العلماء والفقهاء قديماً.

اسمه عليّ، وحيدرة وصف له لغلظ عنقه وذراعيه، وكنيته أبو تراب وأبو الحسين، والدته فاطمة بنت أسد ابن هاشم بن عبد مناف، وضعت في الكعبة، وحضنه الرسول (ص) صغيراً، وكان أول من صدّقه، وصلى معه وهو ابن إحدى عشرة سنة، وأخاه الرسول (ص) بعد ثمانية أشهر من الهجرة، وكان صاحب اللواء بيد، وثبت مع رسول الله (ص) يوم أحد حين انكشف الناس، وبعثه النبي (ص) في وجوه كثيرة، وصعد عليّ (ع) يوم الفتح على منكب رسول الله (ص) فقذف الأصنام وكسرها، وولاه بعده في غدير خمّ، وقبض الرسول (ص) ورأسه على صدر عليّ (ع)، ونزلت آيات كثيرة في شأنه. حمله الناس إلى الخلافة بعد مقتل عثمان، وتمرد عليه معاوية وخاض وقعتي الجمل وصفين، حتى كانت مهزلة التحكيم وظهور الحرورية، ومقتل أمير المؤمنين عليّ بن أبي طالب (ع) على يد ابن ملجم.

ولا يمنعها من تسميتها عليّاً أن تسميه حيدرة، لأن حيدرة اسم من أسامي الأسد لغلظ عنقه وذراعيه، وكذلك كان أمير المؤمنين (ع)، فيكون علي اسمه الأصلي، وحيدرة وصفاً له. فأما كنيته فأبو الحسن وأبو تراب، والنبيّ (ص) كناه أبا تراب، والحديث في المسند والصحيحين.

ذكر الحافظ من مسنده إنّه كان آدم شديد الأدمة، عظيم العينين غليظ الساعدين؛ أقرب إلى القصر من الطول، عريض اللحية، لم يصفه أحد بالخضاب سوى سواد بن

هو علي بن أبي طالب بن عبدالمطلب بن هاشم بن عبدمناف. واسم أبي طالب: عبدمناف، وهو أخو عبدالله والد رسول الله (ص) لأبيه وأمه، وأمها فاطمة بنت عمرو بن عازد. واختلف العلماء في تسميته بعلي (ع)، فقال مجاهد: هو اسم سمّته به أمّه عند ولادته، وقال عطاء: إنّما سمّته أمّه «حيدرة» بدليل قوله يوم خيبر: «أنا الذي سمّنتي أمي حيدرة» فلما على على كتفي الرسول (ص) وكسر الأصنام سمّي عليّاً، من العلو والرفعة والشرف، وقول مجاهد أظهر لأنه ثبت المستفيض به،

حجره، وأنا ولدٌ يضمني إلى صدره، ويكنفني في فراشه، ويمسني جسده، ويشمني عرفه. وكان يمضغ الشيء ثم يلقمني، وما وجد لي كذبةً في قولٍ، ولا خطلَةً في فعلٍ»^(٧).

علي في عصر الرسول (ص)

«وصلى مع رسول الله (ص) وهو ابن إحدى عشرة سنة، وذلك هو الثبت. ويقال: ابن عشرة، ويقال: ابن تسع، ويقال: ابن سبع»^(٨).

«ولقد كان يجاور في كل سنة بحراء فأراه ولا يراه غيري. ولم يجمع بيتٌ واحدٌ يومئذٍ في الإسلام غير رسول الله - صلى الله عليه وآله - وخديجة وأنا ثالثهما. أرى نور الوحي والرسالة، وأشتم ربيع النبوة»^(٩).

«اللهم إني أول من أناب، وسمع وأجاب، لم يسبقني إلا رسول الله - صلى الله عليه وآله - بالصلاة»^(١٠).

وهو أول من صدق رسول الله صلى الله عليه وآله: «والله لأنا أول من صدق»^(١١).

«ولقد بلغني أنكم تقولون: علي يكذب، قاتلكم الله تعالى! فعلى من أكذب؟ أعلى الله؟ فأنا أول من آمن به! أم على نبيه؟ فأنا أول من صدق»^(١٢).

فقال احمد في «الفضائل»: أخبرنا يحيى بن أبي بكر وابن آدم، قالوا: حدثنا اسرائيل عن أبي إسحاق، عن حبشي بن جنادة، عن السلوي - وكان قد شهد حجة الوداع - قال: سمعت رسول الله (ص) يقول في ذلك اليوم: «علي مني وأنا منه، ولا يقضي ديني سواه»؛ وقيل قاله يوم نزل عليه «أنذر عشيرتك الأقربين»^(١٣).

وذكر أبو اسحاق الثعلبي في تفسيره عن ابن عباس قال: لما أراد رسول الله (ص) أن يهاجر إلى المدينة خلف علي بن أبي طالب بمكة لقضاء ديونه وردّ الودائع التي كانت عنده، وأمره تلك الليلة أن ينام على فراشه، وقال: إتشح ببردي الحضرمي الأخضر فإنه لا يخلص إليك منهم أحد ولا يصيبونك بمكروه، والقوم قد أحاطوا بالدار... ثم توجه رسول الله (ص) إلى المدينة فأنزل الله تعالى في شأن علي (ع): ﴿ومن الناس من يشري نفسه ابتغاء مرضات الله، والله رؤوف بالعباد﴾^(١٤). قال ابن عباس: أول من شري نفسه ابتغاء مرضاة الله

حنظلة، والصحيح انه لم يخضب وروي أنه كان يصفر لحيته بالحناء ثم ترك.

ووالدته: فاطمة بنت اسد بن هاشم بن عبدمناف. أسلمت وهاجرت إلى المدينة، وتوفيت بها سنة أربع من الهجرة، وشهد رسول الله (ص) جنازتها، وصلى عليها، ودعى لها، ودفع لها قميصه فألبسها آياه عند تكفينها.

وذكر أحمد بن الحسين البيهقي بأسناده إلى أنس أن رسول الله (ص) نزل في حفرتها، وقال أهل السير: هي أول هاشمية ولدت خليفة هاشمياً. وروي أن فاطمة بنت أسد كانت تطوف بالبيت وهي حامل بعلي (ع)، فضرها الطلق ففتح لها باب الكعبة فدخلت فوضعت فيه.

قلت: وقد أخرج لنا أبو نعيم الحافظ حديثاً طويلاً في فضلها، إلا إنهم قالوا في أسناده روح بن صلاح، ضعفه ابن علي، فلذلك لم نذكره^(١٥).

وقال البلاذري، احمد بن يحيى بن جابر، النسابة والمؤرخ الشهير (ف ٢٧٩) مستنداً:

«قبسات من ترجمة أمير المؤمنين وغرر مناقبه عليه السلام»

وأما أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام فكان يكنى «أبا الحسنين»، ويقال أن أمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبدمناف. لقبته وهو صغير: «حيدرة». وكان رسول الله (ص): «أبا تراب» وكان يقول: هي أحب كنيتي إلي. وقد اختلفوا في سبب تكتيته بأبي تراب، فقال بعضهم^(١٦): مرّ رسول الله (ص) في غزاة، وكان هو وعمار بن ياسر نائبان على الأرض، فجاء ليوقظهما، فوجد علياً قد تمرغ في البوغاء^(١٧)، فقال له: «إجلس يا أبا تراب». وقالوا وجهين آخرين^(١٨).

ولد عليه السلام بمكة في البيت الحرام لثلاث عشرة ليلة خلت من رجب بعد عام الفيل بثلاثين سنة^(١٩).

قالوا وكان أبو طالب قد أقبل وأقر، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، علياً ليخفف عنه مؤنته فنشأ عنده^(٢٠).

وقال علي عليه السلام:

«أنا وضعت في الصغر بكلاكل العرب، وكسرت نواجم قرون ربيعة ومضر. وقد علمتم موضعي من رسول الله - صلى الله عليه وآله - بالقرابة القريبة، والمنزلة الخصيصة. وضعني في

«حدثني شجاع بن مخلد، ويوسف بن موسى القطان، قالوا: حدثنا جرير بن عبد الحميد الضبي، عن سهيل بن أبي صالح، عن أبيه، عن أبي هريرة - رض - قال: قال رسول الله (ص) يوم خيبر: لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله. فدعا علياً فبعثه وقال: قاتل حتى يفتح الله عليك ولا تلتفت»^(٢١).

«وقتل علي عليه السلام في يوم الأحزاب عمرو بن عبدود ونوفل بن عبد الله، وقال جابر بن عبد الله الانصاري: فما شبهت قتل علي عمرواً إلا بما فص الله تعالى من قصة داوود (ع) وجالوت حيث يقول جل شأنه: «فهزمهم بإذن الله وقتل داوود جالوت»^(٢٢). وكان قتله عمرواً ونوفل سبب هزيمة المشركين»^(٢٣).

وقال رسول الله، صلى الله عليه وآله: «الضربة علي خير - أو أفضل - من عبادة الثقلين». وروى الحاكم في المستدرک: قال: «لمبارزة علي أفضل من أعمال أمتي إلى يوم القيامة»^(٢٤). وصعد علي، يوم الفتح على منكب رسول الله فذف الأصنام وكسرها، وقال ابن أبي الحديد في إحدى «قصائد السبع العلويات»:

رقيت بأسمى غارب أهدقت به
ملانك يتلون الكتاب المسطرا
بغارب خير المرسلين وأشرف الأ
نام وأزكى ناعلٍ وطىء الثرى
فسبح جبريلٍ وقُدس هيبته
وهلل إسرافيل رُعباً وكبراً
فيا رتبة لو شئت أن تلمس السُّها
بها لم يكن مارئته متغذراً

ويا قدميه! أيّ قُدسٍ ووطننا
وأىّ مقامٍ قُمنا فيه أنوراً^(٢٥)

أنفذ رسول الله (ص)، بعد حنين، علياً (ع) [إلى الطائف] في خيل وأمره أن يطأ ما وجد ويكسر كل صنم وجده.

فخرج حتى لقيته خيل خنعم في جمع كثير. فبرز لهم رجل من القوم يقال له «شهاب» في غيش الصبح! فقال هل من مبارز؟... فبرز إليه أمير المؤمنين (ع) ثم ضربه فقتله ومضى في تلك الخيل حتى كسر الاصنام وعاد إلى رسول الله (ص) وهو محاصر اهل الطائف. فلما رآه النبي (ص) كبر للفتح وأخذ

علي بن أبي طالب وقال ابن عباس: أنشدني أمير المؤمنين شعراً قاله في تلك الليلة:

وقيت بنفسي خير من وطئ الحصا
ومن طاف بالبیت العتيق وبالحجر
رسول الإله خاف أن يمكروا به
فنجاه ذو الطول العلي من المكر
وبات رسول الله في الغار آمناً
موقى وفي حفظ الإله وفي ستر
وبت أراعيهم وما يشبتونني
وقد وطنت نفسي على القتل والأسر^(٢٥)

وقال عليه السلام في كلام اقتض ذكر ما كان منه بعد هجرة النبي، صلى الله عليه وآله، ثم لحاقه به:

«فجعلت أتبع مأخذ رسول الله، صلى الله عليه وآله، فأطأ ذكره، حتى أنتهيت إلى العرج»^(٢٦).

وأخى رسول الله (ص)، ثمانية أشهر بعد الهجرة بين المهاجرين والانصار في المدينة، وأخذ يد علي بن أبي طالب وقال (ص): «هذا أخي»^(٢٧).

«وكان [أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)] صاحب اللواء بيد، وكان معلماً بصوفة بيضاء، وثبت مع رسول الله (ص) يوم أحد حين انكشف الناس... وبعثه رسول الله في وجوه كثيرة»^(٢٨).

وكتب في كتاب إلى معاوية:

«فأنا أبو حسن قاتل جدك وأخيك وخالك شدخاً يوم بدر، وذلك السيف معي، وبذلك القلب ألقى عدوي...»^(٢٩).

وقال أيضاً:

«إن الله بعث محمداً، صلى الله عليه وآله، وليس أحد من العرب يقرأ كتاباً، ولا يدعي نبوة، فساق الناس حتى يؤأهم محلتهم، وبلغهم منجاتهم، فاستقامت قناتهم، وأطمأنت صفاتهم. أما والله إن كنت لفي ساقنتها حتى تولت بحذافيرها: ما عجزت ولا جنت، وإن مسيري هذا مثلها؛ فلأنقبت الباطل حتى يخرج الحق من جنبه.

مالي ولقريش! والله لقد قاتلتهم كافرين، ولأقاتلتهم مفتونين، وإني لصاحبهم بالأمس، كما أنا صاحبهم اليوم!...»^(٣٠).

بيده؛ فخلا به وناجاه طويلاً...

ثم خرج من حصن الطائف نابغ بن غيلان بن معتب بن خيل من ثقيف، فلقه أمير المؤمنين عليه السلام ببطن وج، فقتله وانهزم المشركون ولحق القوم الرعب؛ فنزل منهم جماعة إلى النبي، صلى الله عليه وآله، فأسلموا^(٢٦).

وأفند رسول الله (ص) في ربيع الآخر من السنة التاسعة من الهجرة، علياً (ع) على مائة وخمسين من الأنصار لهدم بيت الصنم الفلّس في قبيلة طيء، فهدم البيت والأصنام وأسر كثيراً منهم^(٢٧).

قال أحمد في المسند: وقد تقدم اسناده، حدثنا محمد بن جعفر، عن شعبة، عن الحكم، عن مصعب بن سعد، عن أبيه سعد بن أبي وقاص قال خلف رسول الله (ص) علياً في غزوة تبوك في أهله، فقال: يا رسول الله (ص) تخلفني في النساء والصبيان؟ فقال: «ألا ترضى أن تكون مني بمتزلة هارون من موسى، غير أنه لا نبي من بعدي». أخرجه في الصحيحين واتفقا عليه^(٢٨).

وقال أمير المؤمنين، يصف موقفه في عصر الرسالة:

«ولقد كنا مع رسول الله، صلى الله عليه وآله؛ نقتل آباءنا وأبناءنا وإخواننا وأعمامنا؛ ما يزيدنا ذلك إلا إيماناً وتسليماً، ومضياً على اللقم، وصبراً على مضض الألم، وجداً في جهاد العدو؛ ولقد كان الرجل منا والآخر من عدونا يتصاولان تصاول الفحلين، يتخالسان أنفسهما؛ أيها يسقي صاحبه كأس المنون، فمرة لنا من عدونا، ومرة لعدونا منا، فلما رأى الله صدقتنا أنزل بعدونا الكبت، وأنزل علينا النصر؛ حتى استقر الإسلام مُلقياً جرائه، ومتبواً أوطانه»^(٢٩).

حديث الولاية في غدیر ختم

حدثنا اسحاق، حدثنا عبدالرزاق، حدثنا معمر، عن علي بن زيد بن جدعان، عن عدي بن ثابت، عن البراء بن عازب قال: لما أقبلنا مع النبي (ص) في حجته فكنا بغدير ختم نودي: أن الصلاة جامعة، وكسح للنبي (ص) تحت شجرتين، فأخذ بيد علي بن أبي طالب وقال: «أيها الناس اولست أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟» قالوا: بلى. قال: «وأوليس أزواجي أمهاتهم؟» قالوا: بلى يا رسول الله. فقال: «هذا ولي من أنا

مولاه؛ اللهم وال من والاه وعاد من عاداه»^(٣٠).

قال أحمد بن حنبل في المسند: حدثنا ابن نمير، حدثنا عبدالملك بن أبي عبدالرحيم الكندي، عن زاذان قال: سمعت علي بن أبي طالب يقول في الرحبة وهو ينشد الناس يقول: «أنشد الله رجلاً سمع رسول الله (ص) يقول في يوم غدیر خم: «من كنت مولاه فعلي مولاه». فقام ثلاثة عشر رجلاً من الصحابة فشهدوا أنهم سمعوا رسول الله (ص) يقول ذلك. وأخرجه الترمذي أيضاً في كتاب السنن، وقال حديث حسن، وزاد فيه: «اللهم وال من والاه وعاد من عاداه وأدر الحق معه كيفاً داراً وحيث دار».

وأخرجه أحمد أيضاً في الفضائل فقال: حدثنا وكيع، عن الأعمش، عن سعد بن عبيدة، عن ابن بريدة، عن أبيه قال: قال رسول الله (ص): «من كنت مولاه - أو وليه - فعلي وليه»^(٣١).

وقد اكرت الشعراء في يوم غدیر خم، فقال حسان بن ثابت:

يناديهم يوم الغدير نبئهم
بخم فاسمع بالرسول مناديا
وقال فمن مولاكم ووليككم؟
فقالوا ولم يبدوا هناك التعاميا
إلهك مولانا وأنت ولينا
ومالك منا في الولاية عاصيا
فقال له قم يا علي فأنني
رضيتك من بعدي إماماً وهاديا
فمن كنت مولاه فهذا وليه
فكونوا له أنصار صدق مواليا
هناك دعا اللهم وال وليه
وكن للذي عادا علياً معاديا

ويروى أن النبي (ص) لما سمعه ينشد هذه الأبيات، قال له: يا حسان لا تزال مؤيداً بروح القدس ما نصرتنا أو نافحت عنا بلسانك^(٣٢).

كان الأمر هكذا حتى قبض الله نبيه (ص) ورأسه على صدر علي (ع). يقول أمير المؤمنين في موقفه من رسول الله وحقته بالأمر:

«ولقد علم المستحفظون من أصحاب محمد، صلى الله عليه

وآله، أني لم أرد على الله ولا على رسوله ساعة قط. ولقد واسيته بنفسي في المواطن التي تنكص فيها الأبطال، وتتأخر فيها الأقدام، نجدة أكرمني الله بها. ولقد قبض رسول الله صلى الله عليه وآله، وإن رأسه لعلى صدري، ولقد سألت نفسه في كفي، فأمرتها على وجهي. ولقد وليت غسله، صلى الله عليه وآله، والملائكة أعواني، فضجت الدار والأفنية، ملأ يهبط، وملأ يعرج، وما فارقت سمعي هينمة منهم يصلون عليه حتى واريناه في ضريحه. فمن ذا أحق به مني حياً وميتاً؟ فانفذوا على بصائرکم، ولتصدق نياتكم في جهاد عدوكم. فوالذي لا إله إلا هو! إني لعلى جادة الحق، وإنهم لعلى مزلة الباطل. أقول ما تسمعون، وأستغفر الله لي ولكم! (٣٣).

فضائل علي (ع)

فضائله بحر لا ينفد وعدد لا يحصى، كما ألفت كتب متعددة طوال القرون في فضائله واعترفوا أن لا يستطيعوا الاحاطة بجزء منها، كما ألفت الإمام أحمد بن حنبل كتاباً مستقلاً باسم «الفضائل» وذكر فضائله التي قالها رسول الله (ص)، أو قال في شأنه ربه سبحانه وتعالى.

ولما ألبنا على أنفسنا الإيجاز في ذكر سيرته عليه السلام تأت باليسير من فضائله كما قالها بنفسه عليه السلام ونرجع إلى سير حياته الكريمة منذ رحلة الرسول (ص) إلى شهادته (ع). الأول: الآيات التي يقوها المفسرون نزلت في شأن علي عليه السلام، أو برأينا، هو من أبرز مصاديق الآية، ولا تنحصر الآية فيه، وتلك آيات الله الخالدة إلى يوم القيامة وعلي أول من كان المثل الأعلى لبيان الآية. وهي:

- ١- قوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين﴾ (٣٤)؛
- ٢- قوله تعالى: ﴿الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية﴾ (٣٥)؛
- ٣- قوله تعالى: ﴿قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم﴾ (٣٦) أي آية المباهلة؛
- ٤- قوله تعالى: ﴿إنها وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾ (٣٧)؛
- ٥- قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع

الصادقين﴾ (٣٨)،

٦- قوله تعالى: ﴿أفمن كان على بينة من ربه ويتلوه شاهد منه﴾ (٣٩)؛

٧- قوله تعالى: ﴿إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات سيجعل لهم الرحمن وداً﴾ (٤٠)؛

٨- قوله تعالى: ﴿فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر﴾ (٤١)؛

٩- قوله تعالى: ﴿إنها يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت﴾ (٤٢)؛

١٠- قوله تعالى: ﴿وقفوهم أنهم مسؤولون﴾ (٤٣)؛ قال مجاهد عن حب علي؛

١١- وقوله تعالى: ﴿أم حسب الذين اجترحوا السيئات ان نجعلهم كالذين آمنوا وعملوا الصالحات سواء﴾ (٤٤)؛

١٢- قوله تعالى: ﴿والسابقون السابقون﴾ (٤٥)؛

١٣- قوله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا ناجيتم الرسول فقدموا بين يدي نجواكم صدقة﴾ (٤٦)؛

١٤- قوله تعالى: ﴿أولئك هم خير البرية﴾ (٤٧)؛ قال مجاهد: هم علي (ع) وأهل بيته ومحبوهم.

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: ما انزل الله في القرآن آية إلا وعلي رأسها وأميرها.

قال سبط ابن الجوزي (٤٨)؛ «وأما السنة فبأخبار نبدأ منها بما ثبت في الصحيح والمشاهير من الآثار». وبعد هذا القول يشير إلى احاديث وردت في علي (ع)؛ ويذكر هنا عناوينها فقط:

١- حديث المنزلة: «ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارور من موسى غير أنه لا نبي بعدي» أخرجاه في الصحيحين واتفق عليه.

٢- حديث الراية: قال احمد في المسند:... وأخرجه البخاري ومسلم في الصحيحين واتفق عليه من حديث سهل بن سع

قال: قال رسول الله (ص)، يوم خيبر: «لأعطين الراية - اوها الراية - غداً رجلاً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله يفت الله على يديه».

٣- حديث ارتقائه (ع) على كتفي رسول الله (ص) لقد الاصنام من البيت وكسرها.

٤- حديث المحببة: وأخرج الترمذي عن أم سلمة أ

وسلم.

فقال عليه السلام: «احتجوا بالشجرة، وأضاعوا الثمرة»^(٥١).

بعد أن تمت البيعة في السقيفة لأبي بكر، خاطبه العباس وأبو سفيان بن حرب في أن يبايعا له بالخلافة، خطب وقال: «أيها الناس شقوا أمواج الفتن بسفن النجاة، وعرجوا عن طريق المنافرة، وضعوا تيجان المفاخرة. أفلح من نهض بجناح، أو استسلم فأراح. هذا ماء آجن، ولقمة يغص بها أكلها؛ ومجنتي الثمرة لغير وقت إيناعها كالزراع بغير أرضه.

فإن أقل يقولوا: حرص على الملك، وإن أسكت يقولوا: جزع من الموت! هيهات بعد اللتيا والتي! والله لابن أبي طالب أنس بالموت من الطفل بثدي أمه؛ بل اندمجت على مكنون علم لو يحت به لاضطربتم اضطراب الأرشية في الطوي البعيدة!»^(٥٢).

قام الإمام عليه السلام بعد الرسول صلى الله عليه وآله، لحفظ وحدة المسلمين، واطمينان الدين: «في العين قذى وفي الخلق شجاء»، وحقه معتصب، كما يكتب عليه السلام في كتاب إلى أهل مصر:

«أما بعد، فإن الله سبحانه بعث محمداً، صلى الله عليه وآله وسلم، نذيراً للعالمين، ومهيماً على المرسلين. فلما مضى عليه السلام، تنازع المسلمون الأمر من بعده. فوالله ما كان يلقي في روعي، ولا يخطر ببالي، أن العرب تزعج هذا الأمر من بعده، صلى الله عليه وآله وسلم، عن أهل بيته، ولا أنهم منحوه عني من بعده! فما راعني إلا إتيان الناس على فلان يبايعونه، فأمسكت يدي حتى رأيت راجعة الناس قد رجعت عن الإسلام، يدعون إلى محق دين محمد، صلى الله عليه وآله وسلم، فخشيت إن لم أنصر الإسلام وأهله أن أرى فيه ثلماً أو هدماً؛ تكون المصيبة به علي أعظم من فوت ولايتكم التي إنها هي متاع أيام قلائل، يزول منها ما كان، كما يزول السراب، أو كما يتشع السحاب؛ فنهضت في تلك الأحداث حتى زاح الباطل وزهق، واطمأن الدين وتنهت»^(٥٣).

* * *

أبعدوا الإمام عن حقه، ولكن الإمام بقي وثبت في ساحة المجتمع الإسلامي، بايع الخلفاء، وكان لهم مشيراً أميناً وهادياً

قالت: سمعت رسول الله (ص) يقول: «لا يجب علياً إلا مؤمن ولا يبغضه إلا منافق». قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح.

٥- حديث الولاية في حجة الوداع كما مر.

٦- حديث ليلة الهجرة، كما مر.

٧- حديث في التضحية.

٨- حديث في دعاء النبي (ص) له بالسلامة وأنه مغفور له.

٩- حديث في قراءته البراءة، وقوله (ص) علي مني.

١٠- حديث الطائر.

١١- حديث خاصف النعل.

١٢- حديث في سد الأبواب.

١٣- حديث في النجوى والوصية.

١٤- حديث في قوله (ص): من أذى علياً فقد آذاني.

١٥- حديث في قضائه (ع).

١٦- حديث مدينة العلم^(٤٩).

نكتفي بهذا حذر الإسهاب.

* * *

علي (ع) في ساحة الوحدة

فلما لحق رسول الله (ص) إلى الرفيق الأعلى أقام قوم أمراً كان الله قضاء ورسوله أبرمه. كما قال أمير المؤمنين:

«أما الاستبداد علينا بهذا المقام، ونحن الأعلون نسباً، والأشدون برسول الله، صلى الله عليه وآله، نوطاً، فإنها كانت أثرة شحت عليها نفوس قوم، وسخت عنها نفوس آخرين، والحكم الله، والمعود إليه القيامة»^(٥٠).

لما انتهت إلى أمير المؤمنين عليه السلام أنباء السقيفة بعد وفاة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قال عليه السلام: ما قالت الانصار؟ قالوا: قالت: منا أمير ومنكم أمير؛ قال عليه السلام:

«فهلما احتججتم عليهم بأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وصى بأن يحسن إلى محسنهم، ويتجاوز عن مسيئتهم؟».

قالوا: وما في هذا من الحجة عليهم؟ فقال عليه السلام:

«لو كانت الإمامة فيهم لم تكن الوصية بهم».

ثم قال عليه السلام: «فماذا قالت قريش؟».

قالوا: احتجبت بأنها شجرة الرسول، صلى الله عليه وآله

إلى الرشد ولصالح المجتمع الاسلامي؛ شاوره عمر بن الخطاب في الخروج إلى غزو الروم بنفسه منعه وقال له:

«إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك، فتلقهم فتنكب، لا تكن للمسلمين كإفنة دون أقصى بلادهم. ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً محرباً، واحفز معه أهل البلاء والنصيحة، فإن أظهر الله فذاك ما تحب، وإن تكن الأخرى، كنت رداءً للناس ومثابةً للمسلمين»^(٥٤).

وهكذا كان مشيراً أميناً لعثمان بن عفان، ولكن عثمان اختار جميع ولاته وعياله وأباده ومشاوريه من أقربائه من بني أمية، وهم يمتقون علي بن أبي طالب وكانوا يقولون لعثمان: إن علياً ينافسك في السلطان وما يقوله للناس فهو لصالح نفسه؛ وبحسب عثمان أنهم صدقوا وكان يظن علياً ظنَّ السوء؛ ولكن بعد أن نقم الناس على عثمان واجتمعوا في المدينة وعظم أمرهم، نهض علي لاصلاح أمر الأمة ونصح عثمان كراراً وبالغ في النصيحة، وخاف أن تنشر الفتن العمياء في الأمة، وتشتعل نار الفوضوية، وحذر عثمان من أعمال تدفعه إلى موقف لا مرد له، وبين دواء دائه، والطريق الذي سلك كي ترضى عنه الأمة؛ وعثمان كان يتقبل في كل مرة ولكن بعد إعلان رأيه لمروان كان يدفعه لنكث العهد والرجوع إلى موقفه الأول. وقال عليه السلام له:

«إن الناس ورائي وقد استسرفوني بينك وبينهم، ووالله ما أدري ما أقول لك! ما أعرف شيئاً تجهله، ولا أدلك على أمر لا تعرفه. إنك لتعلم ما نعلم. ما سبقناك إلى شيء فنخبرك عنه... وما ابن أبي قحافة ولا ابن الخطاب بأولى بعمل الحق منك... فالله في نفسك! فإنك - والله - ما تبصر من عمي، ولا تعلم من جهل، وإن الطرق لواضحة، وإن أعلام الدين لقائمة... وإني أتشدك الله ألا تكون إمام هذه الأمة المقتول، فإنه كان يُقال: يُقتل في هذه الأمة إمام يفتح عليها القتل والقتال إلى يوم القيامة، ويلبس أموراً عليها، ويبث الفتن فيها، فلا يبصرون الحق من الباطل؛ يموجون فيها موجاً ويمرجون فيها مرجاً. فلا تكونن لمروان سيقاً يسوقك حيث شاء بعد جلال السنِّ وتقضي العمر...»^(٥٥).

يقص الإمام عليه السلام ما جرى عليه في هذه الفترة ويقول:

«وظفقت أرتني بين أن أصول بيد جذاء، أو أصبر على طخية عمياء، يهرم فيها الكبير، ويشيب فيها الصغير، ويكدح فيها مؤمن حتى يلقي ربه!

فرايت أن الصبر على هاتا أحجى؛ فصبرت وفي العين قذى، وفي الحلق شجاً»^(٥٦).

«اللهم إني أستعديك على قريش ومن أعانهم؛ فإنهم قد قطعوا رحمي، وأكفؤوا إنائي، واجمعوا على منازعتي حقاً كنت أولى به من غيري، وقالوا: ألا إن في الحق أن تأخذه، وفي الحق أن تمنعه، فاصبر مغموماً أو متأسفاً. فنظرت فإذا ليس لي رافد ولا ذاب ولا مساعد إلا أهل بيتي؛ فضننت بهم عن المنية؛ فأغضيت على القذى، وجرعت رقي على الشجا، وصبرت من كظم الغيظ على أمر من العلقم، وآلم للقلب من وخز الشفار»^(٥٧).

فسايرهم الإمام إلى غاية الحق، معتصماً بحبل الله لكي لا ينتهي الأمر إلى الفرقة واختلاف الكلمة، ولكنهم ساروا إلى غايتهم وفعلوا ما فعلوا. يقول الإمام للشورى:

«فصبرت على طول المدة، وشدة المحنة؛ حتى إذا مضى لسبيله»^(٥٨) جعلها^(٥٩) في جماعة زعم أي أحدهم، فيالله وللشورى! متى اعترض الريب في مع الأول منهم، حتى صرت أقرن إلى هذه النظائر! لكنني أسففت إذا أسفوا، وطرت إذا طاروا؛ فصغا رجل منهم لضغنه، ومال الآخر لصهره، مع هن وهن...»^(٦٠).

وقال لاعضاء الشورى حجة عليهم وتحذيراً من العاقبة:

«لن يسرع أحد قبلي إلى دعوة حق وصلة رحم، وعائدة كرم؛ فاسمعوا قولي وعوا منطقي؛ عسى أن تروا هذا الأمر من بعد هذا اليوم تنتضي فيه السيوف، وتخان فيه العهود، حتى يكون بعضكم أئمة لأهل الضلالة، وشيعة لأهل الجهالة»^(٦١). وموقف الإمام في هذا كله، موقف الإرشاد واتمام الحجة وبيان الحق! والإعلام والتفهم للعامة:

«وقد قال قائل: إنك على هذا الأمر يابن أبي طالب لحريص؛ فقلت: بل أنتم والله، لأحرص وأبعد، وأنا أخص وأقرب، وإننا طلبت حقاً لي، وأنتم تحولون بيني وبينه، وتضربون وجهي دونه. فلما قرعته بالحجة في الملأ الحاضرين هب كأنه بهت لا يدري ما يجيبني به!»^(٦٢).

على كظة ظالم ولا سغب مظلوم، لألقيت حبليها على غارها،
ولسقيت آخرها بكأس أولها، ولألفيتم دنياكم هذه أزهدي
من عفة عنزي^(٦٧).

ويقول في وصف بيعته بالخلافة في كتاب أو كلام:
«وبسطتم يدي فكففتها، ومددتموها فقبضتها، ثم تداككتم
عليّ تذاك الإبل الهيم على حياضها يوم رردها، حتى انقطعت
النعل، وسقط الرداء، ووطيء الضعيف، وبلغ من سرور الناس
ببيعتهم إيتي أن ابتهج بها الصغبر، وهدج إليها الكبير، وتحامل
نحوها العليل، وحسرت إليها الكعاب»^(٦٨).

وهذا كان إقبال العامة والذين ما كان يربطهم إلى الدنيا
وزبرجها حب المال أو الرياسة أو غيرها؛ ولكن الخاصة
اندفعت وراء الناس وطفت على أمواج الناس إلى الإمام،
وبايعوه كراهة، ولكن اضمروا كراهتهم وما اظهروه ليوم ما،
اغتناماً للفرصة لكي يصلوا بسبب تظاهرهم هذا إلى الغاية،
فلما رأوا أن علياً ما كان الذي طمحووا وتوقعوا، ما استقاموا على
بيعتهم وساروا إلى وصول هدفهم وحفظ مصالحهم:

«فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، ومرقت أخرى، وقسط
آخرون؛ كأنهم لم يسمعوا الله سبحانه يقول: «تلك الدار
الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً،
والعاقبة للمتقين» بلى! والله لقد سمعوها ووعوها، ولكنهم
حلبت الدنيا في أعينهم، وراقهم زبرجها!»^(٦٩).

علي (ع) في ساحة العدالة

بعدما قام الإمام بأمر الولاية فرح المستضعفون من الناس
وحذر الذين يأكلون أموال الناس دولاً ويأخذون عباد الله
خولاً، ويطمعون أن يحتفظوا بما كان في أيديهم، ولكن الإمام
صرح بأنه لن يبقى على شيء ما كان في الزمن الماضي. خطب
لما بويج بالمدينة وتحدث عن الظروف الاجتماعية الراهنة،
وطرق علاجها.

«ذمتي بما أقول رهينة، وأنا به زعيم؛

إن من صرحت له العبر عماً بين يديه من المثلات، حجزه
التقوى عن تقحم الشبهات.

ألا وإن بليتكم قد عادت كهيتها يوم بعث الله نبيه صلى
الله عليه وآله وسلم.

صبر الامام واستقام على طول المدة التي كانت كأنها دهر
طويل وأمد بعيد، لأن لا ينتكث فيها فتل الأمة، وحبل
النظام، ولكن بني أمية عزموا على هدم بيت الإسلام، وأن
يتخذوا مال الله دولاً وعباده خولاً، إن ما دفع الإمام إلى أي
سكون وأي حركة هو نظام الاسلام واصلاح أمر الأمة فحسب.
كان للإمام من تقوى الله بصيرة أن يرى ما يأتي على الأمة
الإسلامية جليلاً؛ يكتب إلى أهل مصر سبب اتخاذ الموقف:

«وإني إلى لقاء الله لمشتاق، وحسن ثوابه لمنتظر راج؛ ولكنني
آسى أن يلي أمر هذه الأمة سفهاؤها وفجارها؛ فيتخذوا مال الله
دولاً، وعباده خولاً، والصالحين حرباً، والفاسقين حزباً»^(٦٣).
اتخذ سفهاء بني أمية وفجارها مال الله دولاً وعباد الله
خولاً، ولكن الناس استبقظوا وتنبهوا من الغفلة، وأثاروهم
عمال عثمان ودفعوهم إلى أعمال فيها خسارات عظيمة وكسر
عظم الأمة لايجبر. وقال:

«إلى أن قام ثالث القوم نافجاً حضييه بين نثيله ومعتلفه،
وقام معه بنو أبيه يخضمون مال الله خضمة الإبل نبتة الربيع،
إلى أن انتكث عليه فتله، وأجهز عليه عمله، وكبت به
بطنته»^(٦٤).

جمع أمير المؤمنين أمر عثمان في كلمتين:

«استأثر فأساء الأثرة، وجزعتم فأسأتم الجزع. ولله حكم
واقع في المستأثر والجازع»^(٦٥).

وبعد هذا الجزع انتبهوا من الغفلة، ووجدوا سبيلاً تركوه
منذ خمس وعشرين سنة، فهاجموا إليه، واستدعوه أن يأخذ زمام
أمر الأمة، ولكن الإمام رفض دعوتهم وقال: «دعوني والتمسوا
غيري؛ فإننا مستقبلون أمراً له وجوه وألوان؛ لا تقوم له
القلوب، ولا تثبت عليه العقول. وإن الآفاق قد أغممت،
والمحجة قد تنكرت؛ واعلموا أي إن أحببتكم ركبت بكم ما
أعلم، ولم أصغ إلى قول القائل وعتب العاتب، وإن تركتموني
فأنا كأحدكم؛ ولعلي أسمعكم وأطوعكم لمن وليتموه أمركم، وأنا
لكم وزيراً خيراً لكم مني أميراً»^(٦٦).

ولكن الناس الحوا وأصرّوا ولن يرضوا أحداً لتولية الأمر،
وأجابهم الإمام بالقبول لأمرين:

«أما والذي فلق الحبة وبرأ النسمة، لولا حضور الحاضر
وقيام الحجة بوجود الناصر؛ وما أخذ الله على العلماء ألا يقاتلوا

فلما رأيا أن لا يستطيعا مسيطرة أمير المؤمنين وحمله على قبول رأيها في قسم المال على سنتي عمر وعثمان وإشراكهما في الأمر، استأذنا في العمرة، فأذن لها، فلحقا بمكة.

وعائشة أم المؤمنين - رضی الله عنها - خرجت إلى مكة وعثمان محصوراً، «ولما انتهت إلى سرف راجعة في طريقها إلى مكة، لقيها عبد بن أمّ كلاب، فقالت له: مهيم؟ قال: قتلوا عثمان رضي الله عنه فمكتوا ثانياً؛ قالت: ثم صنعوا ماذا؟ قال: أخذها أهل المدينة بالاجتماع، فجازت بهم الأمور إلى خير مجاز: اجتمعوا على علي بن أبي طالب. فقالت: والله ليت أن هذه [السماء] انطبقت إلى هذه [الأرض] إن تم الأمر لصاحبك! ردوني ردوني. فانصرفت إلى مكة وهي تقول: قتل والله عثمان مظلوماً، والله لأطلبنّ بدمه. فقال لها ابن أمّ كلاب: ولم؟ فوالله إن أول من أمال حرفه لانت! ولقد كنت تقولين: اقتلوا نعتلاً فقد كفر؛ قالت: إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولي الأخير خير من قولي الأول»^(٧٤).

حرب الجمل

فبينما الإمام واصحابه كانوا يهَيِّؤون لحرب معاوية وأهل الشام إذ جاء الخبر عن أهل مكة بسير عائشة وطلحة والزبير وجماعة من بني أمية والعثمانيين نحو البصرة، فقام أمير المؤمنين فيهم وقال:

«إن هؤلاء قد تمالؤوا على سخطة إمارتي، وسأصبر مالم أخف على جماعتكم؛ فإنهم إن تموا على فيالة هذا الرأي انقطع نظام المسلمين؛ وإنما طلبوا هذه الدنيا حسداً لمن أفاءها الله عليه، فأرادوا رد الأمور على أديارها. ولكم علينا العمل بكتاب الله تعالى وسيرة رسول الله صلى الله عليه وآله، والقيام بحقه، والنعش لسنته»^(٧٥).

يصف الإمام عليه السلام سيرهم إلى البصرة وأعمالهم فيها: «فخرجوا يجرّون حرمة رسول الله، صلى الله عليه وآله، كما تجرّ الأمة عند شرائها، متوجهين بها إلى البصرة، فحبسوا نساءها في بيوتها، وأبرزوا حبيس رسول الله، صلى الله عليه وآله، عليه وآله، لها ولغيرها، في جيش ما منهم رجل إلا وقد أعطاني الطاعة، وسمح لي بالبيعة، طائعا غير مكره، فقدموا على عاملي بها وخزان بيت مال المسلمين وغيرهم من أهلها؛ فقتلوا طائفة

والذي بعثه بالحق، لتبليبنّ بلبلة، ولتغربلنّ غربلةً ولتساطننّ سوط القدر حتى يعود أسفلكم أعلاكم، وأعلاكم أسفلكم، وليسبقنّ سابقون كانوا قسروا، وليقصرنّ سابقون كانوا سبقوا»^(٧٦).

وأعلن فيما رده على المسلمين من قطائع عثمان:

«والله لو وجدته قد تزوج به النساء، وملك به الإماء لرددته؛ فإن في العدل سعة، ومن ضاق عليه العدل، فالجور عليه أضيّق!»^(٧٧).

الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا في عصر رسول الله وزهدوا عن الدنيا، مالوا إلى الدنيا فلما مالت إليهم في زمن الخليفة الثاني لكثرة الغنائم وتقسيمها عليهم أثرة، بعد ما كان تقسيمها أسوة في زمي رسول الله وخليفته الأول أبي بكر، ثم غرقوا في الترف وغرّتهم الدنيا بثروتها وقدرتها وراقهم زبرجها في زمن عثمان بن عفان، فطمع الطلحة والزبير الشركة في أمر الخلافة والتمتع بما كانا متمتعان به سبق، ولكن الإمام لا يعرف لها ولأبي مسلم أو إنسان آخر ميزة أو أثرة أبداً. فلما قال له طلحة والزبير: «نبايعك على أنا شركاؤك في هذا الأمر» قال عليه السلام:

«لا، ولكنكما شريكان في القوة والإستعانة، وعونان على العجز والأود»^(٧٨).

فلما عتبا عليه من ترك مشورتها، والاستعانة في الأمور بهما، وعدم تفضيلها في العطاء، قال عليه السلام لها:

«والله ما كانت لي في الخلافة رغبة، ولا في الولاية إربة، ولكنكم دعوتوني إليها، وهلمتوني عليها، فلما أفضت إليّ نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا، وأمرنا بالحكم به فاتبعته، وما استنّ النبي، صلى الله عليه وآله وسلم، فاقتديته، فلم أحتج في ذلك إلى رأيكما ولا رأي غيركما، ولا وقع حكم جهلته فأستشيركما وإخواني من المسلمين؛ ولو كان ذلك لم أرغب عنكما، ولا عن غيركما. وأما ما ذكرتما من أمر الأسوة، فإن ذلك أمر لم أحكم أنا فيه برأيي ولا وليته هوى مني، بل وجدت أنا وأنتما ما جاء به رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، قد فرغ منه، فلم أحتج إليكما فيما قد فرغ الله من قسمه، وأمضى فيه حكمه؛ فليس لكما، والله، عندي ولا لغيركما في هذا عتبي. أخذ الله بقلوبنا وقلوبكم إلى الحق، والهنا وإياكم الصبر»^(٧٩).

«فجهز علي عائشة باحسن الجهاز وبعث معها أربعين امرأة - وقال بعضهم: سبعين امرأة - حتى قدمت المدينة»^(٨١).
فلما انتهت الحرب دخل الإمام عليه السلام البصرة وقال:
«كنتم جند المرأة، وأتباع البهيمة، رغا فأجبتهم، وعقر فهربتهم.
أخلاقكم دقاق، وعهدكم شقاق، ودينكم نفاق، وماءكم زعاق،
والمقيم بين أظهركم مرتين بذنبيه، والشاخص عنكم متدارك
برحمة من ربه»^(٨٢).

* * *

علي(ع) في الكوفة

قالوا: ولما بايع علي أهل البصرة؛ أراد الشخصوص إلى الكوفة؛ فاستخلف عبد الله بن العباس على البصرة؛ وخطب فأمر أهلها بالسمع والطاعة له، وضم إليه زياد بن أبي سفيان كاتباً، وكان يقال له يومئذ: زياد بن عبيد، وسار مع علي وجوه أهل البصرة فشيوعوه إلى موقوع، وهو موضع قريب من البصرة، منه يرجع المشيعون، ثم رجعوا^(٨٣).
المدائني عن عوانة قال: قال علي: «سرت في أهل البصرة سيرة رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، في أهل مكة».

وقال أبو مخنف: قدم علي من البصرة إلى الكوفة في رجب سنة ست وثلاثين. وقال غيره: في رمضان سنة ست وثلاثين^(٨٤).
وفي هذه السنة بعث علي بن أبي طالب على مصر قيس بن سعد بن عبادة الأنصاري فقال له:

«سر إلى مصر فقد وليتُكها، واخرج إلى رحلك، واجمع إليك ثقاتك ومن أحببت أن يصحبك حتى تأتيها ومعك جند، فإن ذلك أرعب لعدوك وأعز لوليك. فإذا أنت قدمتها إن شاء الله، فأحسن إلى المحسن، واشتد على المريب، وارقق بالعامه والخاصة، فإن الرفق يمن»^(٨٥).

وكتب إلى معاوية:

«من عبد الله علي أمير المؤمنين إلى معاوية بن أبي سفيان: أما بعد، فقد علمت إغذاري فيكم وإعراضي عنكم، حتى كان ما لا بد منه ولا دفع له، والحديث طويل والكلام كثير؛ وقد أدبر ما أدبر وأقبل ما أقبل. فبايع من قبلك وأقبل إلي في وفدٍ من أصحابك. والسلام»^(٨٦).

ولكن معاوية امتنع عن البيعة واحتج بحجج باطلة وعمد إلى المماطلة، وسأل عن قتلة عثمان ودفعهم إليه. «فكتب أمير

صبراً، وطائفة غدرًا. فوالله لو لم يصيبوا من المسلمين إلا رجلاً واحداً معتمدين لقتله، بلا جرم جرّه، لحل لي قتل ذلك الجيش كله، إذ حضروه فلم ينكروا، ولم يدفعوا عنه بلسان ولا بيد؛ دع ما أنتم قد قتلوا من المسلمين مثل العدة التي دخلوا بها عليهم!»^(٧٦).

وخرج الإمام من المدينة إلى البصرة مع عدة قليلة لكي يفيئهم إلى الطاعة ويصرفهم عن إيجاد الفرقة والخلاف بين المسلمين، «فأمر على المدينة تمام بن العباس، وبعث إلى مكة قثم بن العباس ... فاستبان له بالريذة أن قد فاتوه»^(٧٧)، وأشير عليه بالألا يتبع طلحة والزبير ولا يرصد لها القتال، فأجاب عليه السلام:

«والله لا أكون كالضبع: تنام على طول اللدم، حتى يصل إليها طالبها، ويختلها راصدها؛ ولكني أضرب بالمقبيل إلى الحق المدبر عنه، وبالسامع المطيع العاصي المريب أبداً، حتى يأتي عليّ يومي فوالله ما زلت مدفوعاً عن حقي، مُستأثراً عليّ، منذ قبض الله نبيه، صلى الله عليه وسلم، حتى يوم الناس هذا»^(٧٨).

كتب الامام عليه السلام كتاباً من الريذة إلى أهل الكوفة وإلى ساير البلاد واعلمهم بما جرى في المدينة من قتل عثمان بن عفان وبيعتة بعده، ونكث بيعته من طلحة والزبير وخروجها وخروج عايشة، ودعوهم إلى نصرته. وخرج أمير المؤمنين في أهل المدينة وأهل الكوفة «وراية عليّ مع ابنه محمد بن الحنفية، وعلى ميمنته الحسن، وعلى ميسرته الحسين، وعلى الخليل عمار بن ياسر، وعلى الرجالة محمد بن أبي بكر، وعلى المقدمة عبدالله بن العباس. فالتقوا بموضع قصر عبيد الله بن زياد، في النصف من جمادي الآخرة يوم الخميس. وكانت الوقعة يوم الجمعة»^(٧٩).

أرسل أمير المؤمنين إلى طلحة والزبير أن يردّهما عن الحرب، لقي الإمام الزبير ونبّه بأمر انصرف الزبير منه. وقتل طلحة في الوقعة، وقتل من الجيشين ناسٌ كثير، وكانت عائشة في هودج على جمل. فلما رآها أصحاب الجمل، استمر القتال حتى عقروا أصحاب عليّ الجمل. ونادى منادي عليّ يوم الجمل يقول: «لا يسلبن قتيل، ولا يتبع مدبر، ولا يجهز على جريح»^(٨٠).

وإلى من قبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيخان والهجرة فبايع ولا قوة إلا بالله. [والسلام]»^(٨٨).

فلما تأخر معاوية عن جواب صريح، كتب الإمام إلى جرير:

«أما بعد، فإذا أتاك كتابي فأحمل معاوية على الفصل، وخذه بالأمر الجزم، ثم خيره بين حرب مجلبة أو سلم مخزية، فإن اختار الحرب فابذ إليه، وإن اختار السلم فخذ بيعته، والسلام»^(٨٩).

أبطأ معاوية في جواب علي وأرسل إلى عمرو بن العاص، فلما أتاه أعطاه مصر طعمة وشرط عليه طاعة وكتب له كتاباً: «على أن لا ينقض شرط طاعة» وكتب عمرو: «على ألا تنقض طاعة شرطاً». ودعا رؤساء بعض القبائل وتهيباً للحرب. ولما سمع الامام عليه السلام هذه الأنباء قال في عمرو بن العاص وفي أمر معاوية:

«ولم يبايع حتى شرط أن يؤتته على البيعة ثمناً، فلا ظفرت يد البائع وخزيت أمانة المُبتاع؛ فخذوا للحرب أهبتها، وأعدوا لها عُدتها، فقد شبَّ لظاها، وعلا سناها، واستشعروا الصبر، فإنه أدعى إلى النصر»^(٩٠).

وقعة صفين

وعندما طال الانتظار على أصحابه المستعدين لقتال أهل الشام، اجتمعوا على الإمام وأستاذنوه للحرب، قال أمير المؤمنين عليه السلام:

«فتدأكو علي تذاك الإبل الهيم يوم ردها، وقد أرسلها راعيها وخلعت مئانيها؛ حتى ظننت أنهم قاتلي، أو بعضهم قاتل بعض لدي. وقد قلبت هذا الأمر بطنه وظهره حتى منعي النوم؛ فما وجدنتي يسعني إلا قتالهم أو الجحود بما جاء به محمد صلى الله عليه وسلم، فكانت معالجة القتال أهون علي من معالجة العقاب، وموتات الدنيا أهون علي من موتات الآخرة»^(٩١).

ولما أراد علي المسير إلى أهل الشام دعا إليه من كان معه من المهاجرين والأنصار، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

«أما بعد، فإنكم ميامين الرأي، مراجيح الحلم، مقاويل بالحق، مباركو الفعل والأمر. وقد أردنا المسير إلى عدونا

المؤمنين، عليه السلام، إلى جرير بن عبد الله البجلي، وكان جرير عاملاً لعثمان على ثغر همدان،... ثم أقبل جرير سائراً من ثغر همدان حتى ورد على علي، عليه السلام، بالكوفة، فبايعه ودخل فيها دخل فيه الناس، من طاعة علي، واللزوم لأمره. فأراد علي أن يبعث إلى معاوية رسولاً. فقال له جرير: إبعثني إلى معاوية فإنه لم يزل لي مستنصباً ووداً، فآتته فأدعوه على أن يسلم لك هذا الأمر، ويجماعك على الحق، على أن يكون أميراً من أمرائك، وعاملاً من عمالك ما عمل بطاعة الله، اتبع ما في كتاب الله؛ وأدعو أهل الشام إلى طاعتك وولايتك، وجلهم قومي وأهل بلادي، وقد رجوت ألا يعصوني. فبعثه علي عليه السلام، وقال له حين أراد أن يبعثه: «أيت معاوية بكتابي. فإن دخل فيما دخل فيه المسلمون وإلا فابذ إليه، وأعلمه أني لا أرضى به أميراً، وأن العامة لا ترضى به خليفة». فانطلق جرير حتى أتى الشام ونزل بمعاوية، ودفع إليه كتاب علي بن أبي طالب، وفيه^(٨٧).

«بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ. أما بعد، فإن بيعتي بالمدينة لزمته وأنت بالشام... [أنته بايعني القوم الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان علي ما بايعوهم عليه، فلم يكن للشاهد أن يختار ولا للغائب أن يرُد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإن اجتمعوا على رجلٍ وسموه إماماً كان ذلك لله رضى، فإن خرج عن أمرهم خارج بطعنٍ أو بدعةٍ ردوه إلى ما خرج منه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى. إوبصليه جهنم وساءت مصيراً. وإن طلحة والزبير بايعاني ثم نقضا بيعتي، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما على ذلك حتى جاء الحق وظهر أمر الله وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون؛ فإن أحب الأمور إلي فيك العافية، إلا أن تتعرض للبلاء. فإن تعرضت له قاتلتك واستعنت الله عليك. وقد أكثرت في قتلة عثمان، فادخل فيما دخل فيه المسلمون، ثم حاكم القوم إلي أهلك وإياهم على كتاب الله. فأما تلك التي تريدها فخذعة الصبي عن اللبن.]

ولعمري، يا معاوية، لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان، ولتعلمن أني كنت في عزلة عنه إلا أن تتجنني؛ فتجنن ما بدا لك! [وأعلم أنك من الطلقاء الذين لا تحل لهم الخلافة، ولا تعرض فيهم الشورى. وقد أرسلت إليك

وعدوكم فأشيروا علينا برأيكم»^(٩٢).

فأجابوه بأحسن الجواب. ثم كتب عليه السلام إلى عمّاله وأمراء الأجناد وأمراء جيشه وحرّض الناس على الجهاد؛ ثمّ عسكر بالنخيلة وخطب بها عند المسير إلى الشام وقال:

«الحمد لله كلما وقبّ ليلٌ وغسق، والحمد لله كلما لاح نجمٌ وخفق، والحمد لله غير مفقود الإناعام، ولا مكافٍ الإفضال.

أمّا بعد، فقد بعثتُ مقدمتي، وأمرتهم بلزوم هذا الملطاط حتى يأتيهم أمري، وقد رأيت أن أقطع هذه النطقة إلى شردمة منكم، موطنين أكناف دجلة، فأنهضهم معكم إلى عدوكم، وأجعلهم من أمداد القوّة لكم»^(٩٣).

وكان شخوص امير المؤمنين علي عليه السلام من عسكره بالنخيلة إلى الشام لخمس مضيّن من شوال سنة ست وثلاثين يوم الأربعاء.

«استعمل علي عليه السلام على مقدمته الأشتر بن الحارث النخعي، واستعمل معاوية على مقدمته سفيان بن عمرو: أبا الأعور السلميّ. فأتى الأشتر صاحب مقدمة المعاوية وقد سبقه إلى المعسكر على الماء، وكان الأشتر في أربعة آلاف من متبصّري أهل العراق، فأزالوا أبا الأعور عن معسكره، وأقبل معاوية في جميع الفيلق. فلمّا رأى ذلك الأشتر انحاز إلى علي عليه السلام، وغلب معاوية على الماء، وحال بين أهل العراق وبينه. وأقبل علي عليه السلام حتى إذا أراد المعسكر إذا القوم قد حالوا بينه وبين الماء»^(٩٤) فخطب وقال:

«قد استطعموكم القتال، فأقروا على مذلة، وتأخير محلّة؛ أو رُووا السُّيوف من الدّماء ترووا من الماء؛ فالموت في حياتكم مقهورين، والحياة في موتكم قاهرين. ألا وإنّ معاوية قادمة من الغواة، وعمّس عليهم الخبر، حتى جعلوا نحورهم أغراض المنيّة»^(٩٥).

فترجّل الأشعث والأشتر وذووا البصائر من أصحاب علي، وترجل معها اثنا عشر ألفاً، فحملوا على عمرو ومن معه من أهل الشام فأزالوهم عن الماء حتى غمست خيل علي سناكبها في الماء»^(٩٦).

فلمّا غلب علي على الماء فطرد عنه أهل الشام بعثت إلى معاوية: «إنّا لا نكافيك بصنعك، هلمّ إلى الماء فنحن وانتم فيه سواء»^(٩٧).

فلما حلّت الأشهر الحرم تداعى الناس أن يكفّ بعضهم عن بعض إلى أن تنقضي الأشهر الحرم، لعلّ الله يُجري صلحاً واجتماعاً. فكفّ الناس بعضهم عن بعض. ولما توادع علي عليه السلام ومعاوية بصفين اختلفت الرُّسل فيما بينهما رجاء الصلح. ولكنّ معاوية ما أراد الصلح وإصلاح امر المسلمين بل أراد الفتنة والوصول فيها إلى امنيته، ففشل كلّ ما بذل امير المؤمنين من الجهود. فلمّا «انسلخ المحرم أمر علي عليه السلام مرثد بن الحارث الجشمي فنادى عند غروب الشمس: يا أهل الشام، ألا إنّ أمير المؤمنين يقول لكم: إنّي قد استدمتكم واستأنيت بكم لتراجعوا الحقّ وتنبسوا إليه، واحتججت عليكم بكتاب الله ودعوتكم إليه، فلم تتناهاوا عن طغيان، ولم تجيبوا إلى حقّ. وإنّي قد نبذت إليكم على سواء، إنّ الله لا يحبّ الخائنين»^(٩٨).

فثار الناس إلى أمرائهم ورؤسائهم. وخرج معاوية وعمرو بن العاص يكتبان الكتائب ويعبيان العساكر، وبات علي عليه السلام ليلته كلّها يعي الناس، ويكتب الكتائب، ويدور في الناس يحرضهم، وقال عليه السلام لعسكره قبل لقاء العدو بصفين:

«لا تقاتلوهم حتى يبدؤوكم، فإنكم بحمد الله على حجة، وترككم إياهم حتى يبدؤوكم حجة أخرى لكم عليهم. فإذا كانت الهزيمة بإذن الله فلا تقتلوا مذبّراً، ولا تصيبوا معوراً، ولا تجهزوا على جريح، ولا تهبجوا النساء بأذى، وإن شتمن أعراضكم، وسبين أمراءكم؛ فإنهنّ ضعيفات القوى والأنفس والعقول؛ إن كنا لنؤمر بالكفّ عنهنّ وإنهنّ لمشركات؛ وإن كان الرجل ليتناول المرأة في الجاهليّة بالفهر أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده»^(٩٩).

تقاتل العسكران فرادى وجماعات وكتائب، حتى أمر امير المؤمنين عساكره وقال: «حتى متى لا تناهض القوم بأجمعنا؟»^(١٠٠).

فاشدّ القتال بين أهل العراق وأهل الشام. إنّ الفيلقين التقيا بصفين واضطربوا بالسُّيوف ليس معهم غيرها إلى نصف الليل.

«قال زياد بن النضر الحارثي، وكان على مقدّمة علي، قال: شهدت مع علي بصفين، فاقتتلنا ثلاثة أيّامٍ وثلاث ليالٍ، حتى

الأشعث بن قيس قال: يا أمير المؤمنين: أجب القوم إلى كتاب الله فإنك أحقُّ به منهم. وقد أحبَّ النَّاسُ البقاء وكرهوا القتال. فقال علي عليه السَّلام: «إنَّ هذا أمرٌ يُنظرُ فيه»^(١٠٦).

فلما اختلف اصحاب علي في استمرار القتال او المودعة ماج الناس وقالوا: أكلتنا الحربُ وقُتلت الرجال. وقال قوم: نقاتل القومَ على ماقاتلناهم عليه أمس، ولم يقل هذا إلا قليل من الناس، ثم رجعوا عن قولهم مع الجماعة، وثارَت الجماعة بالمودعة.

وقال أمير المؤمنين عليه السلام لما اضطرب عليه أصحابه في أمر الحكومة: «أيها الناس، إنَّه لم يزل أمرِي معكم على ما أحبُّ حتَّى نهكتكمُ الحربُ، وقد والله، أخذت منكم وتركت، وهي لعدوكمُ أنهُك.

لقد كنتُ أمسَ أميراً، فأصبحتُ اليومَ مأموراً، وكنتُ أمسَ ناهياً، فأصبحتُ اليومَ منهيّاً، وقد أحببتُمُ البقاء، وليس لي أن أحملكمُ على ما تكرهون!»^(١٠٧)

«فجاء زهاءُ عشرين ألفاً مقتنعين في الحديد شاكي السَّلاح، سيوفهم على عواتقهم، وقد اسودَّت جباههم من السُّجود، يتقدمهم مسعر بن فدكي، وزيد بن حصين، وعصابة من القراء الذين صاروا خوارج من بعد، فنادوه باسمه لا بإمرة المؤمنين: يا علي... إبعث إلى الأشتر ليأتيك. وقد كان الأشتر صبيحة ليل الهرير قد أشرف على عسكر معاوية ليُدخله»^(١٠٨). فعند ذلك بطلت الحربُ ووضعت أوزارها.

مهزلة التحكيم

«وقال النَّاسُ: قد رضينا بحكم القرآن.. فلما رضي أهل الشام بعمرو بن العاص، ورضي أهل العراق بأبي موسى، أخذوا في كتاب المودعة، ورضوا بالحكم حكم القرآن»^(١٠٩) وبعدما تجادل أهل العراق كثيراً مع الإمام عليه السلام لاختيار الحكم، حملوا عليه أبا موسى حكماً كما حملوه التحكيم. وكتبوا وثيقة التحكيم «يوم الأربعاء لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة سبع وثلاثين»^(١١٠).

«خرج الأشعث في الناس بذلك الكتاب يقرؤه على صفوف أهل الشام، ثم مرَّ به على صفوف أهل العراق. فلما قرأه الأشعث برايات عنزة من أهل العراق، قال فتیان منهم:

تكسرت الرماح ونفدت السهام، ثم صرنا إلى المسايقة فاجتلدنا بها إلى نصف الليل، حتَّى صرنا نحنُ وأهل الشام في اليوم الثالث يعانقُ بعضنا بعضاً... فلما كان نصف الليل من الليلة الثالثة انحاز معاوية وخيله من الصف، وغلب علي عليه السلام على القتلى في تلك الليلة، وأقبل على أصحاب محمد، صلى الله عليه وأصحابه، فدفعهم، وقد قتل كثيرٌ منهم، وقد قتل من أصحاب معاوية أكثر»^(١١١).

المشهور أنه عليه السَّلام قال لأصحابه ليلة الهرير: «معاشر المسلمين: أستشعروا الخشية، وتجليبوا السَّكينة، وعضوا على النواجذ، فإنه أنبى للسيوف عن الهام، وأكملوا اللأمة، وقلقلوا السيوف في أغمارها قبل سلها. والحظوا الخزر، واطعنوا الشزر، وناقحوا بالظبا، وصلوا السيوف بالخطا، واعلموا أنكم بعين الله، ومع ابن عم رسول الله. فعادوا الكر، واستحيوا من الفر، فإنه عارٌ في الأعقاب، وثار يوم الحساب. وطيبوا عن أنفسكم نفساً، وامشوا إلى الموت مشياً سُّججاً، وعليكم بهذا السَّواد الأعظم، والرواق المُطنب، فاضربوا ثبجه، فإن الشيطان كامنٌ في كسره، وقد قدم للوثبة بدءاً، وآخر للنعكوص رجلاً. فصمداً صمداً! حتَّى ينجلي لكم عمود الحق، «وأنتمُ الأعْلونَ، والله معكم، ولن يترككمُ أعمالكم»^(١١٢).

«فاجتلدوا بالسيوف وعمد الحديد من صلاة الغداة إلى نصف الليل، لم يصلوا لله صلاة. فلم يزل يفعل ذلك الأشتر بالناس حتَّى أصبح والمركة خلف ظهره. وافترقوا عن سبعين ألف قتيلٍ في ذلك اليوم وتلك الليلة، وهي «ليلة الهرير». وكان الاشتر في ميمنة الناس، وابن عباس في الميسرة، وعلي في القلب، والناس يقتتلون»^(١١٣) «^(١١٤).

«فتار أهل الشام فنادوا في سواد الليل: يا أهل العراق، من لذرارينا إن قتلتمونا ومن لذراريكم إن قتلناكم؟ الله الله في البقية. فأصبح أهل الشام وقد رفعوا المصاحف على رؤوس الرماح وقلدوها الخيل، والناس على الرايات قد اشتهوا ما دعوا إليه، ورفع مصحف دمشق الأعظم تحمله عشرة رجال على رؤوس الرماح ونادوا: يا أهل العراق، كتاب الله بيننا وبينكم...»^(١١٥) اختلفوا اصحاب علي عليه السلام في الاجابة لأهل الشام، عدي بن حاتم والأشتر النخعي وعمرو بن الحَمَق قالوا باستمرار القتال وقرع الحديد بالحديد، ولكن

لا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ! ثُمَّ حَمَلَا عَلَى أَهْلِ الشَّامِ بِسَيُوفِهِمَا ففَاتَلَا حَتَّى قُتِلَا عَلَى بَابِ رِوَاقِ مَعَاوِيَةَ، وَهِيَ أَوَّلُ مَنْ حَكَّمَهُ. ثُمَّ حَكَّمُوا أَشْخَاصًا آخَرِينَ مِنْ أَهْلِ الْعِرَاقِ... فَمَا رَاعَ الْإِمَامُ إِلَّا نِدَاءَ النَّاسِ مِنْ كُلِّ جِهَةٍ وَفِي كُلِّ نَاحِيَةٍ: لَا حَكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، الْحَكْمَ لِلَّهِ يَا عَلِيُّ لَا لَكَ، لَا نَرْضَى بِأَنْ يَحْكُمَ الرَّجَالُ فِي دِينِ اللَّهِ. وَقَدْ كَانَتْ مِنْهُ زَلَّةٌ حِينَ رَضِينَا بِالْحَكَمِينَ، فَرَجَعْنَا وَتَبْنَا، فَارْجِعْ أَنْتَ يَا عَلِيُّ كَمَا رَجَعْنَا، وَتَبْ إِلَى اللَّهِ كَمَا تَبْنَا، وَإِلَّا بَرْتْنَا مِنْكَ؛ فَأَبَى عَلِيُّ أَنْ يَرْجِعَ، وَأَبَتْ الْخَوَارِجُ إِلَّا تَضْلِيلَ التَّحْكِيمِ وَالطَّعْنَ فِيهِ، وَبَرَّتْ مِنْ عَلِيٍّ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَبَرَّئُ مِنْهُمْ»^(١١١)

فَرَجَعَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ مِنْ صَفِّينَ إِلَى الْكُوفَةِ وَكَتَبَ إِلَى أَهْلِ الْأَمْصَارِ، يَقْضَى فِيهِ مَا جَرَى بَيْنَهُ وَبَيْنَ أَهْلِ صَفِّينَ: «وَكَانَ بَدْءُ أَمْرِنَا أَنَا التَّقِينَا وَالْقَوْمُ مِنْ أَهْلِ الشَّامِ، وَالظَّاهِرُ أَنَّ رَبَّنَا وَاحِدٌ، وَنَبِينَا وَاحِدٌ، وَدَعْوَتُنَا فِي الْإِسْلَامِ وَاحِدَةٌ، وَلَا نَسْتَزِيدُهُمْ فِي الْإِيمَانِ بِاللَّهِ وَالتَّصَدِيقِ بِرَسُولِهِ وَلَا يَسْتَزِيدُونَنَا؛ الْأَمْرُ وَاحِدٌ إِلَّا مَا اخْتَلَفْنَا فِيهِ مِنْ دَمِ عَثْمَانَ، وَنَحْنُ مِنْهُ بَرَاءَةٌ! فَقَلْنَا: تَعَالَوْا نَدَاوْ مَا لَا يُدْرِكُ الْيَوْمَ بِإِطْفَاءِ النَّائِرَةِ، وَتَسْكِينِ الْعَامَةِ، حَتَّى يَشْتَدَّ الْأَمْرُ وَيَسْتَجْمَعُ، فَتَقْوَى عَلَى وَضْعِ الْحَقِّ مَوَاضِعَهُ. فَقَالُوا: بَلْ نَدَاوِيهِ بِالْمُكَابَرَةِ! فَأَبَوْا حَتَّى جَنَحَتْ الْحَرْبُ وَرَكَدَتْ، وَوَقَدَتْ نِيرَانَهَا وَحَمَشَتْ. فَلَمَّا ضَرَّسْتَنَا وَإِيَّاهُمْ، وَوَضَعْتَ مَخَالِبَهَا فِينَا وَفِيهِمْ، أَجَابُوا عِنْدَ ذَلِكَ إِلَى الَّذِي دَعَوْنَاهُمْ إِلَيْهِ، فَأَجْبَنَاهُمْ إِلَى مَا دَعَوْا، وَسَارَعْنَاهُمْ إِلَى مَا طَلَبُوا، حَتَّى اسْتَبَانَاتْ عَلَيْهِمُ الْحُجَّةُ، وَانْقَطَعَتْ مِنْهُمْ الْمَعْدَرَةُ. فَمَنْ تَمَّ عَلَى ذَلِكَ مِنْهُمْ فَهُوَ الَّذِي أَنْفَذَهُ اللَّهُ مِنَ الْهَلَكَةِ، وَمَنْ لَجَّ وَقَادَى فَهُوَ الرَّكَسُ الَّذِي رَانَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ، وَصَارَتْ دَائِرَةُ السُّوءِ عَلَى رَأْسِهِ»^(١١٢).

أهل النهروان ورأيهم في الحكمية

لَمَّا قَدِمَ عَلِيُّ الْكُوفَةَ فَارْقَتَهُ الْمَحْكَمَةُ وَنَزَلُوا بِقَرِيَةِ قَرِيَةِ مِنَ الْكُوفَةِ يُقَالُ لَهَا الْحَرُورَاءُ، وَبِهَا سَمُوا الْحَرُورِيَّةَ، فَبِعَثَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَيْهِ السَّلَامُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْعَبَّاسِ لِلْإِحْتِجَاجِ عَلَى الْخَوَارِجِ وَأَوْصَاهُ:

«لَا تُخَاصِمُهُمْ بِالْقُرْآنِ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَالٌ ذُو وَجْهِ، تَقُولُ وَيَقُولُونَ، وَلَكِنْ حَاجِجُهُمْ بِالسُّنَّةِ، فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصًا»^(١١٣)

وَلَكِنَّ ابْنَ عَبَّاسٍ حَاجَّجَهُمْ بِالْقُرْآنِ وَمَا اسْتَطَاعَ أَنْ يَحْمِلَهُمْ عَلَى الرَّجُوعِ إِلَى الْحَقِّ، حَتَّى ذَهَبَ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ بِنَفْسِهِ وَحَاجَّجَهُمْ بِالسُّنَّةِ وَأَدْخَلَهُمْ فِي الْحَقِّ، وَلَكِنَّ رُؤْسَاؤَهُمْ بَثُوا الْفِتْنَ فِيهِمْ، وَمَا لَبَثُوا أَنْ هَتَفُوا بِشَعَارِ التَّحْكِيمِ، وَمَا سَمِعَ عَلَيْهِ السَّلَامُ قَوْلَ الْخَوَارِجِ: «لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ» قَالَ: «كَلِمَةٌ حَقٌّ يُرَادُ بِهَا بَاطِلٌ! نَعَمْ إِنَّهُ لَا حُكْمَ إِلَّا لِلَّهِ، وَلَكِنَّ هَؤُلَاءِ يَقُولُونَ: لَا أَمْرَ إِلَّا لِلَّهِ، وَإِنَّهُ لَا بُدَّ لِلنَّاسِ مِنْ أَمِيرٍ بَرٍّ أَوْ فَاجِرٍ، يَعْمَلُ فِي أَمْرِهِ الْمُؤْمِنُ وَيَسْتَمْتِعُ فِيهَا الْكَافِرُ، وَيَبْلُغُ اللَّهُ فِيهَا الْأَجَلَ، وَيَجْمَعُ بِهِ الْفِيءُ، وَيَقَاتِلُ بِهِ الْعَدُوَّ، وَتَأْمَنُ بِهِ السُّبُلُ وَيُؤْخَذُ بِهِ لِلضَّعِيفِ مِنَ الْقَوِيِّ، حَتَّى يَسْتَرِيحَ بَرٌّ، وَيَسْتَرَاحَ مِنْ فَاجِرٍ»^(١١٤)

بَيْنَا هُوَ عَلَيْهِ السَّلَامُ يَجَادِلُ الْخَوَارِجَ وَقَعَ التَّحْكِيمُ وَبَلَّغَهُ مَا حَدَّثَ مِنْ أَمْرِ الْحَكَمِينَ، فَحَمَدَ اللَّهُ عَلَى بِلَائِهِ وَبَيْنَ سَبَبِ الْبَلَاوِي:

«الْحَمْدُ لِلَّهِ وَإِنْ أَتَى الدَّهْرُ بِالْمُخْطَبِ الْفَادِحِ وَالْحَدِيثِ الْجَلِيلِ. وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، لَيْسَ مَعَهُ إِلَهٌ غَيْرُهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.

أَمَّا بَعْدُ، فَإِنَّ مَعْصِيَةَ النَّاصِحِ الشَّفِيقِ الْعَالَمِ الْمُجْرِبِ تَوْرَثَ الْحَسْرَةَ، وَتَعَقَّبَ النَّدَامَةَ. وَقَدْ كُنْتُ أَمْرَتَكُمْ فِي هَذِهِ الْحُكُومَةِ أَمْرِي، وَنَخَلْتُ لَكُمْ مَخْزُونَ رَأْيِي، لَوْ كَانَ يَطَاعُ لِقَصِيرِ أَمْرٍ! فَأَيُّتِمُّ عَلَى إِبَاءِ الْمُخَالَفِينَ الْجَفَاءَ، وَالْمُنَابِذِينَ الْعَصَاةَ، حَتَّى ارْتَابَ النَّاصِحُ بِنَصْحِهِ، وَضَنَّ الزُّنْدُ بِقَدْحِهِ؛ فَكُنْتُ أَنَا وَإِيَّاكُمْ كَمَا قَالَ أَخُو هُوَازِنَ:

أَمْرَتَكُمْ أَمْرِي مُنْعَرَجِ السُّلُوبِ

فَلَمْ تَسْتَبِينُوا النَّصْحَ إِلَّا ضَحَى الْغَدِ^(١١٥)

«قَالُوا: خَرَجَ عَلِيُّ إِلَى أَهْلِ حَرُورَاءَ فَكَلَّمَهُمْ وَحَاجَّجَهُمْ، وَذَلِكَ بَعْدَ بَعَثْتِهِ ابْنَ عَبَّاسٍ إِلَيْهِمْ، فَدَخَلُوا جَمِيعًا إِلَى الْكُوفَةِ، وَكَانَ الرَّجُلُ مِنْهُمْ يَذْكَرُ الْقَضِيَّةَ فَيُخْرِجُ فِيحْكَمُ، وَكَانَ عَلِيُّ يَقُولُ: إِنَّا لَا نَمْنَعُهُمُ الْفِيءَ، وَلَا نَحُولُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَسَاجِدِ اللَّهِ، وَلَا نَهَيِّجُهُمْ مَا لَمْ يَسْفِكُوا دَمًا وَمَا لَمْ يَنَالُوا مُحْرَمًا»^(١١٦).

ثُمَّ إِنَّهُمْ مَضَوْا إِلَى النَّهْرَوَانِ.

وَاجْمَعِ عَلِيُّ عَلَى إِيْتَانِ صَفِّينَ، وَبَلَّغَ مَعَاوِيَةَ فَسَارَ حَتَّى أَتَى صَفِّينَ.

وَكَتَبَ عَلِيُّ إِلَى الْخَوَارِجِ بِالنَّهْرَوَانِ: «أَمَّا بَعْدُ، فَقَدْ جَاءَكُمْ مَا كُنْتُمْ تَرِيدُونَ فَقَدْ تَفَرَّقَ الْحَكَمَانِ عَلَى غَيْرِ حُكُومَةٍ وَلَا اتِّفَاقٍ؛

إن القوم عبروا جسر النهروان:
«مصارعهم دون النطقة؛ والله لا يفلت منهم عشرة، ولا
يهلك منكم عشرة»^(١٢٥).

ولما قتل الخوارج فقيلاً له: يا أمير المؤمنين، هلك القوم
بأجمعهم، قال عليه السلام: «كلّاً والله، إنهم نطف في أصلاب
الرجال، وقرارات النساء، كلّما نجم منهم قرن قطع حتى يكون
آخرهم لصواً سلابين!»^(١٢٦).

وقد مرّ بالقتلى فقال عليه السلام: «بؤساً لكم، لقد ضرّكم
من غرّكم» فقيلاً له: من غرّهم يا أمير المؤمنين؟ فقال:
«الشيطان المضلّ والأنفس الأمارّة بالسوء، غرّتهم بالأمانى،
وفسحت لهم بالمعاصي، ووعدتهم بالإظهار، فاقتحمت بهم
النار»^(١٢٧).

«وكان مقتل أهل النهروان لتسع خلون من صفر سنة ثمان
وثلاثين»^(١٢٨).

أمر علي عليه السلام بعد النهروان

«وأمر علي عليه السلام الناس بالرحيل من النهروان فقال
لهم: إن الله قد أعزّكم وأذهب ما كنتم تخافون عنكم؛ فامضوا
من وجهكم هذا إلى الشام. فقال الأشعث بن قيس: يا أمير
المؤمنين نفدت سهامنا وكلت سيوفنا ونصلت رماحنا؛ فلو أتينا
مصرنا حتى نريح ونستعدّ ثم نسير إلى عدونا. فركن الناس
إلى ذلك...

وسار علي حتّى أتى المدائن، ثم مضى حتّى نزل النخيلة،
وجعل أصحابه يدخلون الكوفة حتّى بقى في أقلّ من ثلاثمائة،
فلما رأى ذلك دخل الكوفة وقد بطل عليه ما دبر من إتيان
الشام قاصداً إليها من النهروان، فخطب الناس»^(١٢٩)
ونصحهم مرّة وعاتبهم ووبخهم مرّة أخرى، فتركهم أياماً حتّى
إذا يتس منهم خطبهم فحمد الله وأثنى عليه وصلى على نبيه
صلى الله عليه وآله وسلم، ثم قال:

أف لكم! لقد سئمت عتابكم، أرضيتم بالحياة الدنيا من
الآخرة عوضاً؟ وبالذلّ من العزّ خلفاً؟ إذا دعوتكم إلى جهاد
عدوكم دارت أعينكم كأنكم من الموت في غمرة ومن الدهول
في سكرة! يرتج عليكم حوارى فتعمهون، وكأن قلوبكم
مألوسة فأنتم لا تعقلون.

فارجعوا إلى ما كنتم عليه فإني أريد المسير إلى الشام» فأجابوه
أنه لا يجوز لنا أن نتخذك إماماً، وقد كفرت حتّى تشهد على
نفسك بالكفر وتوب كما تبنا، فإنك لم تغضب لله، إنّها غضبت
لنفسك»^(١٣٧) فقال عليه السلام:

«أصابكم حاصبٌ، ولا بقى منكم أثرٌ، أبعد إيباني بالله
وجهادي مع رسول الله، صلى الله عليه، أشهد على نفسي
بالكفر؟! «لقد ضللت إذاً وما أنا من المهتدين!»^(١٣٨) فأوبوا شرّاً
مآب، وارجعوا على أثر الأعقاب. أما إنكم ستلقون بعدي ذلاًّ
شاملاً، وسيفاً قاطعاً، وأثرة يتخذها الظالمون فيكم سنةً»^(١٣٩).

فلما بلغ خبر الجرائم التي ارتكبتها الخوارج، من قتل ابن
خبّاب وامرأته ورسول علي الحارث بن مرّة العبدى ونفراً آخر،
علياً ومن معه؛ قالوا له: ماترنا هؤلاء وراءنا يخلفونا في أموالنا
وعيالاتنا بما نكره، سر بنا إليهم فإذا فرغنا منهم سرنا إلى
عدونا من أهل المغرب، فإن هؤلاء أحضر عداوةً وأنكى حدّاً...
ثم أتى علي النهروان فبعث إلى الخوارج أن أسلموا لنا قتلة
ابن خباب ورسولي والنسوة لأقتلهم ثم أنا تارككم إلى فراغي
من أمر أهل المغرب فلعل الله يقبل بقلوبكم ويردكم إلى ما
هو خير لكم وأملك بكم. فبعثوا إليه أنه ليس بيننا وبينك إلا
السيف إلا أن تقرّ بالكفر وتوب كما تبنا»^(١٤٠) وقال لهم علي
عليه السلام:

«فأنا نذيرٌ لكم أن تصبحوا صرعى بأثناء هذا النهر،
وبأهضام هذا الغائط، على غير بينة من ربكم، ولا سلطان مبین
معكم...»^(١٤١)

«فلم يزل يعظهم ويدعهم فلمّا لم ير عندهم انقياداً - وكان
في أربعة عشر ألفاً - عبأ الناس... ثم بسط لهم علي الأمان
ودعاهم إلى الطاعة»^(١٤٢) فرجعت طائفة منهم متفرقين إلى الكوفة
والبلاد، وخرجت طائفة منهم إلى علي فاقاموا معه، واعتزلوا
بعض الأمراء منهم حتى بقى ابن وهب الراسبي وزيد بن
حصين وعبدالله بن شجرة ونفر آخر في ألف وثمانمائة أو أربعة
آلاف من الخيل والرجالة. وقال علي لأصحابه: «كفّوا عنهم
حتّى يبئدوكم»^(١٤٣) «وتنادي الحرورية: الرواح إلى الجنة معاشر
المخبتين، فشدوا على أصحاب علي شدة واحدة؛ ونهض علي
إليهم فما لبثوا أن أهدوا في ساعة... ولم يقتل من أصحاب علي
إلا عشرة نفر أو أقل»^(١٤٤) لأنه قال لما عزم على حربهم، وقيل له:

وليس من الله خلف في غيره» (١٣٤)

«وخرج معاوية بن خديج الكندي ثم السكوني فدعا إلى الطلب بدم عثمان، وذلك إن معاوية دس إليه في ذلك وكتبه فيما يقال وأرغبه، فأجاب ابن خديج بشر كثير، وفسدت مصر على محمد بن أبي بكر، وبلغ علياً فساد أمره وانتشاره.

وكان علي قد ولي قيس بن سعد - بعد أمر النهران - آذربيجان وولى الأشتر الجزيرة فكان مقامه بنصيبين، فقال: ما لمصر إلا أحد هذين الرجلين، فكتب إلى مالك الأشتر (١٣٥) ... وأخبره بأمر ابن أبي بكر، وشرحه له، وأمره أن يستخلف على عمله بعض ثقاته وتقدم عليه، ففعل فولاه مصر» (١٣٦)

«قالوا: لما ورد على علي خبر الأشتر؛ كتب إلى محمد بن أبي بكر، وقد كان وجد من تولية الأشتر مكانه» (١٣٧):

«أما بعد، فقد بلغني موجدتك من تسريح الأشتر إلى عملك، وإني لم أفعل ذلك استبطاءً لك في الجهد، ولا أزيداً لك في الجهد؛ ولونزعت ماتحت يدك من سلطانك، لوليتك ما هو أيسر عليك مؤونة، وأعجب إليك ولاية.

إن الرجل الذي كنت وليته أمر مصر كان رجلاً لنا ناصحاً، وعلى عدونا شديداً ناقماً؛ فرحمه الله! فلقد استكمل أيامه، ولاقى حماته، ونحن عنه راضون، أولاه الله رضوانه، وضاعف الثواب له، فأصحر لعدوك، وامض على بصيرتك، وشمّر للحرب من حاربك، وأدع إلى سبيل ربك، وأكثر الاستعانة بالله يكفك ما أهلك، ويعنك على ما ينزل بك، إن شاء الله» (١٣٨).

«قالوا: ولما انصرف الحكمان وتفرقا وبويع معاوية بالخلافة، قوي أمره واستعلى شأنه، واختلف أهل العراق على علي؛ فلم يكن لمعاوية همة إلا مصر، وقد كان لأهلها هائباً، لقربهم منه وشدتهم على من كان يرى رأيه. فدعا عمرو بن العاص فولاه إيها على ما كانا افترقا عليه... فلما أراد [عمرو بن العاص] الشخصوص إلى مصر تقدم إليه معاوية في محاربة محمد بن أبي بكر. وكتب ابن أبي بكر إلى علي؛ يعلمه ولاية عمرو بن العاص مصر من قبل معاوية، ويقول له: إنه توجه في جيش لجب، وبمن قبلي من الفشل والوهن مالا انتفاع بهم معه، فإن كانت لك في مصر حاجة فأمدني بالأموال والرجال...»

وخطب علي أهل الكوفة ودعاهم إلى إغاثة محمد بن أبي بكر ومن معه من أهل مصر، فتقاعدوا عنه، ثم انتدب منهم

ما أنتم لي بثقة سجييس اللبالي، وما أنتم بركن يمال بكم، ولا زوافر عز يفتقر إليكم. ما أنتم إلا كابل ضل رعاتها، فكلما جمعت من جانب انتشرت من آخر. لبئس، لعمر الله، سحر نار الحرب أنتم! تكادون ولا تكيدون، وتنتقص أطرافكم فلا تمتعضون؛ لا ينام عنكم وأنتم في غفلة ساهون، غلب والله المتخاذلون!

وأيم الله إني لأظن بكم أن لو حمس الوغى واستحرم الموت، قد أنفرتكم عن ابن أبي طالب أنفراج الرأس. والله إن امرأ يُمكنُ عدوه من نفسه يعرق لحمه، وهشم عظمه، ويفري جلده، لعظيم عجزه، ضعيف ما ضمت عليه جوانح صدره. أنت فكن ذلك إن شئت؛ فأما أنا فوالله دون أن أعطي ذلك ضرباً بالمشرفية تطير منه فراش الهام، وتطيح السواعد والأقدام، ويفعل الله بعد ذلك ما يشاء» (١٣٩).

«قالوا: وخطبهم بعد ذلك خطباً كثيرة، وناجاهم وناداهم فلم يربعوا إلى دعوته ولا التفتوا إلى شيء من قوله» (١٤٠)

أمر مصر ومقتل محمد بن أبي بكر

«لما بويع علي دعا قيس بن سعد الأنصاري فولاه المغرب، فشخص إلى مصو ومعه أهل بيته حتى دخلها فقرأ على أهلها كتاباً من علي إليهم... فقام الناس فبايعوا علياً واستقاموا لقيس... وسار علي إلى الجمل وقيس بمصر، وصار من البصرة إلى الكوفة وهو بمكانه، فكان أثقل خلق الله على معاوية» (١٤١) فدس عليه معاوية وتظاهر بمبايعة قيس إياه. بلغ الخبر علياً عليه السلام فعزله «وولى محمد بن أبي بكر مصر؛ فلما ورد محمد مصر غضب قيس وقال: والله لا أقيم معك طرفة عين، وانصرف إلى المدينة... ثم إن قيس بن سعد خرج وسهل بن حنيف جميعاً قدما على علي بالكوفة؛ فخبره الخبر وصدقه [علي] وشهد معه صفين شهدها سهل أيضاً.

ولما قدم محمد بن أبي بكر - رضى الله تعالى عنها - [مصر] قرأ عهده على أهلها» (١٤٢):

«... وأعلم يا محمد بن أبي بكر، أي قد وليتك أعظم أجنادي في نفسي أهل مصر، فأنت محقوق أن تخالف على نفسك، وأن تنافح عن دينك ولو لم يكن لك إلا ساعة من الدهر، ولا تسخط الله برضى أحد من خلقه، فإن في الله خلفاً من غيره،

الحكمين وخذلان العراقيين علياً عليه السلام، من جانب آخر، ولما ظهر على مصر قوي أمره وكثرت أمواله، وازداد اصحاب علي عليه السلام تفرقاً عليه وكرهية للقتال؛ فحدثت بعدئذ حوادث نشير إليها إجمالاً:

- كان الخزيت بن راشد السامي مع علي بن أبي طالب في ثلاثائة من بني ناجية... فلما حكم الحكمان ركن إلى الخوارج وعصى أمر علي، ثم أتى قومه وسار من تحت ليلته من الكوفة ومعه قومه وتوجه نحو كسكر... وقد وجه علي زياد بن خصفة وعبدالله بن وال التيمي في طلبهم نحو البصرة في كنف... فأتبعهم زياد ولحقهم زياد بالمرار فاقتتلوا، ثم أفلت خزيت وقومه، وكتب علي إلى معقل بن قيس، فاقتتلا، وقتل النعيان بن صهبان الخزيت، وقتل أكثر ذلك الجمع وهرب فلهم يمينا وشمالاً^(١٤٥).

- أشخص معاوية، بعد مقتل محمد بن أبي بكر، عبدالله بن عامر الحضرمي إلى البصرة لدعوة أهلها في الطلب بدم عثمان. بلغ ذلك علياً وأرسل علي جارية بن قدامة إليهم؛ فاقتتلوا ساعة ثم هزمهم واضطروهم إلى دار فحصرهم ذلك اليوم إلى العشي، فحرق جارية الدار عليهم، فهلك ابن الحضرمي ومن معه في الدار^(١٤٦).

- ثم جعل معاوية يغير على العراق، منها: دعا معاوية الضحّاك بن قيس الفهري وقال له: سرّ حتى تمرّ بناحية الكوفة وترتفع عنها ما استطعت، فمن وجدته من الأعراب في طاعة علي فأغر عليه... فأقبل الضحّاك يأخذ الأموال ويقتل من لقي من الأعراب حتى مرّ بالتعلبية، فأغار خيله على الحاجّ فأخذ أمتعتهم، ثم أقبل فلقى عمرو بن عميس بن مسعود... فقتله في طريق الحاجّ وقتل معه ناساً من أصحابه.

قال أبو روق: فحدثني أبي أنه سمع علياً عليه السلام وقد خرج إلى الناس، وهو يقول على المنبر: «يا أهل الكوفة اخرجوا إلى عبدالصالح عمرو بن عميس وإلى جيوشكم قد أصيب منها طرف؛ أخرجوا فقاتلوا عدوكم وامنعوا حريمكم إن كنتم فاعلين».

قال: فردوا عليه رداً ضعيفاً ورأى منهم عجزاً وفشلاً فقال^(١٤٧):

جُنيد أنفذهم إلى مصر، مع كعب بن مالك الهمداني؛ فلم يبلغوا حتى أتى علياً مقتل محمد بن أبي بكر، فردّهم من بعض الطريق، وخطب فقال^(١٣٩):

«مُنيت بمن لا يطيع إذا أمرت ولا يجيب إذا دعوت، لا أباً لكم! ما تنظرون بنصركم ربكم؟ أما دين يجمعكم، ولا حمية تحمشكم! أقوم فيكم مستصرخاً وأناديكم متغوّثاً؛ فلا تسمعون لي قولاً، ولا تطيعون لي أمراً، حتى تكشف الأمور عن عواقب المساءة؛ فما يدرك بكم نار، ولا يبلغ بكم مرأى. دعوتكم إلى نصر إخوانكم فجرجرتهم جرجرة الجمل الأسر، وتناقلتم تناقل النّص الأديب، ثم خرج إليّ منكم جُنيد متدائب ضعيف، (كأننا يُساقون إلى الموت وهم ينظرون)^(١٤٠)»،^(١٤١).

وكتب علي إلى عبدالله بن عباس بمقتل محمد بن أبي بكر^(١٤٢).

«وأنت معاوية عيونه بشخوص الأشتر والياً على مصر، فبعث إلى رأس أهل الحراج بالفلزم فقال له: إن الأشتر قادم عليك؛ فإن أنت لظفت - لكفياقي إياه - لم آخذ منك خراجاً ما بقيت، فاحتل له بما قدرت عليه. فخرج الأشتر حتى إذا أتى الفلزم - وكان شخوصه من العراق في البحر - استقبله الرجل فأنزله وأكرمه... فأتاه بشربة من العسل قد جعل فيها سماً، فلما شربها قتله من يومه أو من غده.

وبلغت معاوية وفاته فقال: كانت لعلي يدان - يعني قيس بن سعد والأشتر - فقد قطعت إحداهما. وجعل يقول: إن لله لجنداً من عسل^(١٤٣).

وقد جاء نعي الأشتر رحمه الله إلى أمير المؤمنين عليه السلام فقال:

«مالك وما مالك! والله لو كان جبلاً لكان فنداً، ولو كان حجراً لكان صلداً، لا يلتقيه الحافر، ولا يوفي عليه الطائر^(١٤٤)».

غارات علي العراق بأمر معاوية

اضطرب حينئذ أمر علي عليه السلام؛ ما كانوا يسمع أمره ويطيعه أهل العراق للقيام على العدو، أو عود إلى الحرب بصفين، أو قيام آخر، عصوا وخذلوا الإمام من جانب؛ وشجع معاوية وتبهر من قتل حمد بن أبي بكر ومالك الأشتر وحكم

وأخذه الأموال ورجوعه إلى الشام: «بعث معاوية بسر بن أبي أرطأة... فمرّ بالمدينة فأخاف أهلها وأذعرهم، ثم إلى مكّة، والطائف، ومضى بسر حتى إذا شارف اليمن؛ هرب عبيدالله وسعيد... فلحقا بعلي... فلما قدمها بسر قتل عبدالله بن عبدالمدان الحارثي وابنه مالك بن عبدالله، وقتل جماعة من شيعة علي.

وسار جارية بن قدامة السعدي حتى أتى اليمن... وطلب بسرّاً فهرب منه - فأتبعه إلى مكّة، وظفر بقوم من أصحابه فقتلهم...» (١٥٣).

- غارة الحرث بن نمر التنوخي على أهل الجزيرة.

- غارة عبدالرحمان بن قباث بن أشيم الكنافي على الجزيرة.

عندما كان يسمع خبرها أمير المؤمنين كان يدعو أهل الكوفة إلى إغاثة اخوانهم، ولكن لم يجيبوهم، وأخيراً قال لهم: «أحمد الله على ما قضى من أمر، وقدّر من فعل، وعلى ابتلائي بكم أيتها الفرقة التي إذا أمرت لم تطع، وإذا دعوت لم تجب. إن أمهلتكم خضتم، وإن حوربتكم خرتم. وإن اجتمع الناس على إمام طعنتم، وإن أجتتم إلى مشاققة نكستم. لا أبا لغيركم! ما تنتظرون بنصركم ربكم والجهاد على حقكم؟ الموت أو الذل لكم!

فوالله لئن جاء يومي - وليأتيني - ليُفرقن بيني وبينكم وأنا لصحبتيكم قال، وبكم غير كثير. لله أنتم!

أما دينٌ يجمعكم، ولا حمية تشحذكم؟! أوليس عجباً أن معاوية يدعو الجفأة الطغام فيتبعونه على غير معونة ولا عطاء، وأنا أدعوكم - وأنتم تريكة الإسلام وبقية الناس - إلى المعونة أو طائفة من العطاء فتفرقون عني وتختلفون علي؟

إنه لا يخرج إليكم من أمري رضياً فترضونه، ولا سخطاً فتجتمعون عليه؛ وإن أحب ما أنا لاقٍ إلى الموت! قد دارستكم الكتاب، وفاحتكم الحجاج، وعرفتم ما أنكرتم، وسوغتكم ما مجتتم؛ لو كان الأعمى يلحظ، أو النائم يستيقظ! وأقرب بقوم من الجهل بالله فاندتهم معاوية ومؤدبهم ابن النابغة! (١٥٤).

روي عن نوف البكالي قال: خطبنا بهذه الخطبة أمير المؤمنين علي عليه السلام بالكوفة، وهو قائم على حجارة، نصبها له جعدة بن هبيرة المخزومي وعليه مدرعة من صوف

«أيها الناس، المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهوائهم! كلامكم يوهي الصمّ الصلاب، وفعلكم يطمع فيكم الأعداء! تقولون في المجالس: كيت وكيت، فإذا جاء القتال قلتُم حيدي حيايد! ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم. أعاليل بأضاليل، وسألتموني التطويل، دفاع ذي الدين المطول. لا يمنع الضيم الدليل! ولا يدرك الحق إلا بالجد...» (١٤٨).

استمرت هذه الغارات من قبل عمال معاوية وبأمره وقصتها طويلة، نوردها هنا إجمالاً وإشارة حذراً عن الإطناب والإسهاب:

- غارة سفيان بن عوف الغامدي على الأنبار وقتل أشرس بن حسان البكري عامل علي ثم انصرف، وأتى علياً الخبر «وكان علياً لا يمكنه الخطبة، فكتب كتاباً قرىء على الناس... وكانت نسخة الكتاب: (١٤٩)

«أما بعد، فإن الجهاد بابٌ من أبواب الجنة، فتحه الله لخاصة أوليائه، وهو لباس التقوى، ودرع الله الحصينة، وجنته الوثيقة...» (١٥٠).

ثم إن علياً أتبعه سعيد بن قيس الهمداني، فبلغ صفين ثم انصرف.

- غارة النعمان بن بشير الأنصاري على عين التمر: قاتله مالك بن كعب عامل علي على عين التمر حتى رفعه عن القرية، فانهزموا حتى لحقوا بمعاوية.

وقد كان على حين أتاه خبر النعمان بالكوفة؛ خطب الناس فقال:

«كم أداريكم كما تُداري البكارُ العمدة، والثيابُ المتداعية! كلما حيصت من جانب تهتكت من آخر. كلُّما أطلَّ عليكم منسُرٌ من مناسر أهل الشام أغلق كلُّ رجلٍ منكم بابه، وانجحرج إنجحار الضبة في جحرها، والضبع في وجارها...» (١٥١).

- غارة عبدالله بن مسعدة الفزاري إلى تيباء: فندب علي (ع) المسيب بن نجبة الفزاري في طلبه، فالتقى هو وابن مسعدة فاقتتلوا قتالاً شديداً؛ أصابت ابن مسعدة جراحات... فلجأ إلى حائط حول حصن تيباء... فلما جنَّ عليه الليل خلى [عبدالرحمان بن أساء الفزاري] سبيلهم فمضوا حتى لحقوا بمعاوية (١٥٢).

- مسير بسر بن أبي أرطأة وغارته على المسلمين وأهل الذمة

الكعبة^(١٥٦).

قالوا: لم يزل ابن ملجم تلك الليلة عند الأشعث بن قيس يناجيه حتى قال له الأشعث: قم فقد فضحك الصبح. وسمع ذلك من قوله حجر بن عدي الكندي، فلما قتل علي قال حجر: يا أعور أنت قتلتها^(١٥٧).

المدائني عن يعقوب بن داود الثقفي، عن الحسن بن يزيد: إن علياً خرج في الليلة التي ضرب في صبيحتها في السحر وهو يقول:

أشدد حيازيمك للموت فإن الموت لا قيك
ولا تجزع من الموت إذا حل بواديك

فلما ضربه ابن ملجم قال: فُزْتُ وَرَبُّ الكَعْبَةِ. وكان آخر ما تكلم به: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾^(١٥٨)،^(١٥٩).

قال عليه السلام في سحرة اليوم الذي ضرب فيه:

«ملكنتي عيني وأنا جالس، فسنح لي رسول الله، صلى الله عليه وآله وسلم، فقلت: يا رسول الله ماذا لقيت من أمتك من الأود واللدد؟ فقال: أدع عليهم. فقلت: أبدلني الله بهم خيراً منهم، وأبدلهم بي شراً لهم مني»^(١٦٠).

ووصى عليه السلام الحسن والحسين عليهما السلام.

«أوصيكما بتقوى الله، والألتغيا الدنيا وإن بغتكما، ولا تأسفا على شيءٍ منها زوى عنكما. وقولا بالحق وأعمالا للاخرة»^(١٦١) وكونا للظالم خصماً وللمظلم عوناً.

أوصيكما وجميع ولدي وأهلي ومن بلغه كتابي، بتقوى الله ونظم أمركم، وصلاح ذات بينكم، فإني سمعت جدك، صلى الله عليه وآله وسلم يقول: «صلاح ذات البين أفضل من عامة الصلاة والصيام».

اللَّهُ اللهُ في الأيتام، فلا تُعبوا أفواههم، ولا يضيعوا بحضرتكم.

والله الله في جيرانكم، فإنه وصية نبيكم. مازال يوصي بهم حتى ظننا أنه سيورثهم.

والله الله في القرآن، لا يسبقكم بالعمل به غيركم.

والله الله في الصلاة فإنها عمود دينكم.

والله الله في بيت ربكم، لا تخلوه ما بقيتم، فإنه إن ترك لم

وحائل سيفه ليف، وفي رجليه نعلان من ليف، وكان جبينه تفتة بعير. فقال عليه السلام:

«الحمد لله الذي إليه مصائر الخلق، وعواقب الأمر...»

ثم نادى بأعلى صوته:

الجهاد الجهاد عباد الله! ألا وإني مُعسكرٌ في يومي هذا؛

فمن أراد الرواح إلى الله فليخرج!»

قال نوف: وعقد للحسين عليه السلام في عشرة آلاف، ولقيس بن سعد رحمه الله في عشرة آلاف، ولأبي أيوب الأنصاري في عشرة آلاف، ولغيرهم على أعدادٍ أخر، وهو يريد الرجعة إلى صفين، فما دارت الجمعة حتى ضربه الملعون ابن ملجم لعنه الله، فتراجعت العساكر، فكنا كأغنام فقدت راعيها، تحتظفها الذئاب من كل مكان!^(١٥٥).

أمر ابن ملجم ومقتل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب (ع)

المدائني، عن مسلمة بن محارب، عن داود بن أبي هند، عن الشعبي قال: حج ناس من الخوارج سنة تسع وثلاثين، وقد اختلف عامل علي وأصحاب معاوية، فأصطلح الناس على شيبة بن عثمان، فلما انقضى الموسم أقام الخوارج مجاورين فقالوا: كان هذا البيت معظماً في الجاهلية، جليل الشأن في الإسلام، وقد انتهك هؤلاء حرمة، فلو أن قوماً شروا أنفسهم فقتلوا هذين الرجلين اللذين قد أفسدوا في الأرض، واستحلاً حرمة هذا البيت استرحنا واستراحت الأمة، واختار الناس لأنفسهم إماماً، فقال عبدالرحمان بن ملجم: أنا أكفيكم علياً؛ وقال الحجاج بن عبيدالله الصريمي، وهو البركة: أنا أقتل معاوية؛ وقال داؤويه مولى بني حارثة بن كعب بن العنبر، واسمه عمرو بن بكر: والله ما عمرو بن العاص بدونها فأنا له. فتعاقدوا على ذلك، ثم إنهم اعتمدوا عمرة رجب.

فقدم ابن ملجم الكوفة وجعل يكتم أمره؛ فتزوج قطام بنت علقمة من تيم الرباب - وكان علي قتل أخاها - فأخبرها بأمره، وكان أقام عندها ثلاث ليال، فقالت له في الليلة الثالثة: لشد ما أحببت لزوم أهلك وبيتك وأضربت عن الأمر الذي قدمت له! فقال: إن لي وقتاً وأعدت عليه أصحابي ولن أجاوزه. ثم إنه قعد لعلي فقتله؛ ضربه على رأسه، وضرب ابن عم له عضادة الباب، فقال علي حين وقع به السيف: فُزْتُ وَرَبُّ

تَنَظَرُوا.
وَاللَّهِ اللَّهُ فِي الْجِهَادِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ وَالسَّنْتِكُمْ فِي سَبِيلِ
اللَّهِ.
وَعَلَيْكُمْ بِالتَّوَأَصْلِ وَالتَّبَادُلِ، وَإِيَّاكُمْ وَالتَّدَابُرَ وَالتَّقَاطُعَ. لَا
تَتْرَكُوا الْأَمْرَ بِالْمَعْرُوفِ وَالنَّهْيِ عَنِ الْمُنْكَرِ فَيَوَلَى عَلَيْكُمْ
شِرَارِكُمْ، ثُمَّ تَدْعُونَ فَلَا يَسْتَجَابُ لَكُمْ.
ثُمَّ قَالَ:

يَا بَنِي عَبْدِ الْمُطَّلِبِ، لَا أَلْفَيْنِكُمْ تَخُوضُونَ دِمَاءَ الْمُسْلِمِينَ
خَوْضًا، تَقُولُونَ: قُتِلَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ. أَلَا لَا تَقْتُلُنَّ بِي إِلَّا قَاتِلِي!
أَنْظَرُوا إِذَا أَنَا مِتُّ مِنْ ضَرْبَتِهِ هَذِهِ، فَاضْرِبُوهُ ضَرْبَةً
بِضَرْبَةٍ، وَلَا تُثْمَلُوا بِالرَّجُلِ، فَإِنِّي سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ، يَقُولُ: «إِيَّاكُمْ وَالمُثَلَّةَ وَلَوْ بِالْكَلبِ الْعَقُورِ»^(١٦٢).

قالوا: ومكث علي يوم الجمعة ويوم السبت، وتوفي ليلة
الأحد لإحدى عشرة ليلة بقيت من شهر رمضان سنة أربعين.
فلما بلغت عائشة خبره أنشدت قول البارقي:

فَأَلَقَتْ عَصَاهَا وَاسْتَقَرَّتْ بِهَا النَّوَى
كَمَا قَرَّ عَيْنًا بِالْإِيَابِ الْمَسَافِرِ
وَقَالَ أَبُو الْأَسْوَدِ الدَّوْلِيُّ:

أَلَا أَبْلَغُ مَعَاوِيَةَ بْنِ حَرْبٍ
فَلَا قَرَّتْ عَيْونَ الشَّامَتِينَا

فَقَتَلْتُمْ خَيْرَ مَنْ رَكِبَ الْمَطَايَا
وَأكْرَمَهُمْ وَمَنْ رَكِبَ السَّفِينَا

وَمَنْ لَبِسَ النِّعَالَ وَمَنْ حَذَاهَا
وَمَنْ قَرَأَ المَثَانِي وَالمَثِينَا

وَقَدْ عَلِمْتَ قَرِيشَ حَيْثُ كَانَتْ
بِأَنَّكَ خَيْرَهُمْ حَسَبًا وَدِينًا^(١٦٣)

المصادر والهوامش:

نرمز إلى: نهج = نهج البلاغة، ط = خطبة، ك = كلام، ر = رسالة أو
كتاب، ح = حكمة وهي كلم القصار من النهج، وص = وصية،
ق = قول. وعدد الخطب وغيره من نهج البلاغة مصحح ومفهرس عن
الدكتور صبحي الصالح.

- ١- سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، ١٤ - ٢٠ ملخصاً.
- ٢- ويدل على هذا القول أخبار وردت في مصادر كثيرة، فرواه أحمد بن
حنبل في مسند عمار من كتاب المسند: ج ٤ ص ٢٦٣، ورواه أيضاً
التسائي في الحديث ١٤٩ من كتاب الخصائص، ص ١٢٩.
- ٣- البوغاء: الغبار ودقاق التراب، أو ما ثار منها.
- ٤- البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٨٩ - ٩٠.
- ٥- شريف الرضي، خصائص أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه
السلام، ص ٤.
- ٦- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٩٠.
- ٧- نهج، ط ١٩٢ (القاصعة).
- ٨- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٩١، حديث ٦.
- ٩- نهج، ط ١٩٢.
- ١٠- نهج، ط ١٣١.
- ١١- نهج، ط ٣٧.
- ١٢- نهج، ط ٧١.
- ١٣- سبط ابن الجوزي، تذكرة الخواص، ص ٤٤.
- ١٤- البقرة/ ٢٠٧.
- ١٥- تذكرة الخواص، ص ٤١.
- ١٦- نهج، ط ٢٣٦، قال السيد الشريف ذيل الخطبة: «قوله عليه السلام:
«فأطأ ذكره»، من الكلام الذي رُمى به إلى غايته الإيجاز والفضاحة،
أراد أي كنت أعطي خبره - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ - من بدء خروجي
إلى أن انتهيت إلى هذا الموضع، فكنتي عن ذلك بهذه الكناية
العجيبة».
- ١٧- سيرة النبي، ج ٢، ص ١٢٣ - ١٢٦.
- ١٨- بلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٩١ - ٩٢، حديث ٨.
- ١٩- نهج، ط ١٠.
- ٢٠- نهج، ط ٣٣.
- ٢١- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٩٣، حديث ١١.
- ٢٢- البقرة/ ٢٥١.
- ٢٣- الشيخ المفيد، الإرشاد، ص ٥٠ - ٥٦ ملخصاً.
- ٢٤- الدكتور محمد ابراهيم آيتي، تاريخ پیامبر اسلام، ص ٣٩٥.
- ٢٥- نفس المصدر، ص ٥٦٧.
- ٢٦- الارشاد، ص ٨٠ - ٨١.
- ٢٧- تاريخ پیامبر اسلام، ص ٦١٧.
- ٢٨- تذكرة الخواص، ص ٢٧.
- ٢٩- نهج، ط ٥٦.
- ٣٠- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ١٠٨، حديث ٤٦. ونقل البلاذري هذا
الحديث باربعة طرق أخرى.

سيرة علي من كلام علي

- ٣١- تذكرة الخواص، ص ٣٥. وللسبط ابن الجوزي في هذا الحديث بحث دقيق وقول طويل وذكره بأسناد وطرق أخرى معتبرة.
- ٣٢- تذكرة الخواص، ص ٣٩.
- ٣٣- نهج، ط ١٩٧.
- ٣٤- البقرة / ٤٣.
- ٣٥- البقرة / ٢٧٤.
- ٣٦- آل عمران / ٦١.
- ٣٧- المائدة / ٥٥.
- ٣٨- التوبة / ١١٩.
- ٣٩- هود / ١٧.
- ٤٠- مريم / ٩٦.
- ٤١- الأحزاب / ٢٣.
- ٤٢- الأحزاب / ٣٣.
- ٤٣- الصفات / ٢٤.
- ٤٤- الجاثية / ٢١.
- ٤٥- الواقعة / ١٠.
- ٤٦- المجادلة / ١٢.
- ٤٧- البيّنة / ٧.
- ٤٨- تذكرة الخواص، ص ٢٧.
- ٤٩- تذكرة الخواص، ملخصاً من ص ٢٧ إلى ص ٥٦.
- ٥٠- نهج، ط ١٦٢.
- ٥١- نهج، ط ٦٧.
- ٥٢- نهج، ط ٥.
- ٥٣- نهج، ط ٦٢.
- ٥٤- نهج، ط ١٣٤.
- ٥٥- نهج، ط ١٦٤.
- ٥٦- نهج، ط ٣ (ششقية).
- ٥٧- نهج، ط ٢١٧.
- ٥٨- عمر بن الخطاب.
- ٥٩- أمر الخلافة.
- ٦٠- نهج، ط ٣.
- ٦١- نهج، ك ١٣٩.
- ٦٢- نهج، ط ١٧٢.
- ٦٣- نهج، ر ٦٢.
- ٦٤- نهج، ط ٣.
- ٦٥- نهج، ط ٣٠.
- ٦٦- نهج، ط ٩٢.
- ٦٧- نهج، ط ٣.
- ٦٨- نهج، ط ٢٢٩.
- ٦٩- نهج، ط ٣.
- ٧٠- نهج، ط ١٦.
- ٧١- نهج، ط ١٥.
- ٧٢- نهج، ح ٢٠٢.
- ٧٣- نهج، ط ٢٠٥.
- ٧٤- الطبري، تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٤٥٨ - ٤٥٩.
- ٧٥- نهج، ط ١٦٩.
- ٧٦- نهج، ط ١٧٢.
- ٧٧- الطبري، ج ٤، ص ٤٥٥.
- ٧٨- نهج، ط ٦.
- ٧٩- ابن عبد ربّه، العقد الفريد، ج ٤، ص ٣١٤.
- ٨٠- نفس المصدر، ص ٣٢٤.
- ٨١- نفس المصدر، ص ٣٢٨.
- ٨٢- نهج، ط ١٣.
- ٨٣- البلاذري، أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٢٧١، حديث ٣٥١.
- ٨٤- نفس المصدر، ص ٢٧٣، حديث ٣٥٧.
- ٨٥- الطبري، تاريخ الرسل، ج ٤، ص ٥٤٧ - ٥٤٨.
- ٨٦- نهج، ر ٧٥.
- ٨٧- نصر بن مزاحم، وقعة صفين، ص ٢٧ - ٢٨.
- ٨٨- نهج، ر ٦. ما جاء بين المعقوفين من كتاب «وقعة صفين» (ص ٢٩٠)؛ عدا ما جاء بين المعقوفين، يوجد فرق يسير بين كلمات هذا الكتاب في نهج البلاغة وفي وقعة صفين.
- ٨٩- نهج، ر ٨.
- ٩٠- نهج، ط ٢٦.
- ٩١- نهج، ط ٥٤.
- ٩٢- وقعة صفين، ص ٩٢.
- ٩٣- نهج، ط ٤٨.
- ٩٤- وقعة صفين، ص ١٥٧.
- ٩٥- نهج، ط ٥١.
- ٩٦- وقعة صفين، ص ١٦٧.
- ٩٧- نفس المصدر، ص ١٩٣.
- ٩٨- وقعة صفين، ص ٢٠٣.
- ٩٩- نهج، و ص ١٤ (قسم الكتب).
- ١٠٠- وقعة صفين، ص ٢٢٥.
- ١٠١- وقعة صفين، ص ٣٦٩.
- ١٠٢- محمد(ص) / ٣٥.
- ١٠٣- نهج، ط ٦٦.

سيرة علي من كلام علي

- ١٠٤- وقعة صفين، ص ٤٧٥.
- ١٠٥- نفس المصدر، ص ٤٨١.
- ١٠٦- نفس المصدر، ص ٤٨٢.
- ١٠٧- نهج، ك ٢٠٨.
- ١٠٨- وقعة صفين، ص ٤٨٩ - ٤٩٠.
- ١٠٩- نفس المصدر، ص ٤٩٩ - ٥٠٤.
- ١١٠- نفس المصدر، ص ٥٠٨.
- ١١١- نفس المصدر، ص ٥١٢ - ٥١٤.
- ١١٢- نهج، ر ٥٨.
- ١١٣- نهج، و ص ٧٧ (قسم الكتب).
- ١١٤- نهج، ك ٤٠.
- ١١٥- نهج، ط ٣٥.
- ١١٦- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٥٩، حديث ٤٣٦.
- ١١٧- نفس المصدر، ص ٣٦٧، حديث ٤٣٧.
- ١١٨- الأنعام / ٥٦.
- ١١٩- نهج، ك ٥٨.
- ١٢٠- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٦٨ - ٣٦٩.
- ١٢١- نهج، ط ٣٦.
- ١٢٢- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٧١، حديث ٤٣٩.
- ١٢٣- نفس المصدر، ص ٣٧١.
- ١٢٤- نفس المصدر، ص ٣٧٣.
- ١٢٥- نهج، ق ٥٩ (باب الخطب).
- ١٢٦- نهج، ق ٦٠.
- ١٢٧- نهج، ج ٣٢٣ (باب الحكم، القسم الثالث).
- ١٢٨- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٧٥.
- ١٢٩- نفس المصدر، ص ٣٧٩، حديث ٤٥٠.
- ١٣٠- نهج، ط ٣٤.
- ١٣١- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٨٢، حديث ٤٥٣.
- ١٣٢- نفس المصدر، ج ٢، ص ٣٨٩ - ٣٩٠.
- ١٣٣- نفس المصدر، ص ٣٩٢.
- ١٣٤- نهج، من كتاب ٢٧.
- ١٣٥- نهج، ر ٤٦.
- ١٣٦- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٣٥٨.
- ١٣٧- نفس المصدر، ص ٤٠٠، حديث ٤٦٣.
- ١٣٨- نهج، ر ٣٤.
- ١٣٩- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٠٠ - ٤٠١، حديث ٤٦٤.
- ١٤٠- الأنفال / ٦.
- ١٤١- نهج، ط ٣٩.
- ١٤٢- نهج، ر ٣٥.
- ١٤٣- أنساب الأشراف، ص ٣٨٩ - ٣٩٠.
- ١٤٤- نهج، ج ٤٤٣.
- ١٤٥- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤١١ - ٤١٥.
- ١٤٦- ابراهيم بن محمد التقفي الكوفي، الغارات، ج ٢، ص ٣٧٣ - ٠٨.
- ١٤٧- الغارات، ج ٢، ص ٤٢١ - ٤٢١.
- ١٤٨- نهج، ط ٢٩.
- ١٤٩- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٤٢.
- ١٥٠- نهج، ط ٢٧.
- ١٥١- نهج، ط ٦٩.
- ١٥٢- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٤٩ - ٤٥٠.
- ١٥٣- نفس المصدر، ص ٤٥٧ - ٤٥٨.
- ١٥٤- نهج، ط ١٨٠.
- ١٥٥- نهج، ط ١٨٢.
- ١٥٦- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٨٧ - ٤٨٨، حديث ٥١٩.
- ١٥٧- نفس المصدر، ص ٤٩٣، حديث ٥٢٥.
- ١٥٨- الزلزلة / ٧ و ٨.
- ١٥٩- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٩٩، حديث ٥٤٣.
- ١٦٠- نهج، ق ٧٠ (من قسم الأول باب الخطب).
- ١٦١- كذا (الآخرة) في النسخ المخطوطة من النهج، وهذا هو الصح
وفي النسخ المطبوعة: للأجر (؟).
- ١٦٢- نهج، و ص ٤٧ (قسم الثاني، باب الكتب).
- ١٦٣- أنساب الأشراف، ج ٢، ص ٤٩٦ - ٥٠٨.